في الثقافة والأدب
(كتابات) (٣)

في الثقافة والأدب (كتابات) (٣)
غسان كامل ونوس
ط١: ٢٠١٠
عدد النسخ: ٥٠٠ نسخة
القياس: ١٥ × ٢٢

شرق و غرب للترجمة والطباعة والنشر والتوزيع
دمشق – هاتف: ٦٦٢٥١٩٤ - موبايل: ٠٩٩٩٥٠٦٤٣٩
التوزيع في الأقطار العربية: دار التكوين - دمشق - تلفاكس: ٢٢٣٦٤٦٨
الموقع الإلكتروني www.attakwin.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإخراج الفني وتصميم الغلاف
أحمد إسماعيل
لوحة الغلاف: صورة عمل نحتي للفنان حسن محمد

غسان كامل ونوس

في الثقافة والأدب

كتابات

(٣)

المثقف والفعل الثقافي

المثقفون بشر، وليسوا من جنس الملائكة، فمن الطبيعي أن تكون لهم انتماءاتهم وعواطفهم ومشاعرهم وأهواؤهم، ومن المألوف أن تختلف إمكانياتهم وخبراتهم، ويتفاوت غناهم وزادهم، وتتنوع حاجاتهم ورغباتهم وأعباؤهم المادية والاجتماعية والنفسية والإنسانية بشكل عام. وكثيرون منهم منخرطون في تجمعات وأحزاب وهيئات وإدارات ومؤسسات..

لكنهم ليسوا كائنات عادية، بل لديهم ما يميزهم؛ أو يفترض أن يكون.

ومهما تعددت التجمعات والمسارات، وتباينت المستويات، فإن ما يميز المثقف قدرته على الفهم والتحليل والربط والاستنتاج، وما يميز المثقف السعي للوصول إلى الحقيقة، إذا ما كانت غائمة أو مغيبة، والبحث عن الأصلي والوقوف على خصائصه وخصاله، من دون الالتهاء بالقشور، والانشغال بالمزيف، والتعلق بما يطفو على السطح.

ومن النافل القول إن المثقف يقف إلى جانب الحق، ويدافع عن الحقوق، ويهتم برفع الظلامة عن الناس، ويحمل راية العدل والإنصاف والإنسانية، وبذلك، يفترض أن يكون للمثقفين موقف واحد من القضايا الأساسية الجلية. وإذا ما حدث هذا فعلاً، سيشكل المثقفون رأياً ثقافياً ضاغطاً مؤثراً في الرأي العام، وفي الموقف العام السياسي والرسمي تجاه القضايا إياها.

فهل هذا هو الواقع في أضعف دائرة وأوسعها؟

ولا يكفي أضعف الإيمان هنا، وإن كان ينم عن وصول إلى الجوهر، ولا الإعلان عن الموقف على النطاق الضيق؛ بل لا بد من الجهر بالقول، والسعي لتعميمه، وشرح الأسباب التي تقنع به.

ولا يكفي أن نقوم بذلك بلغتنا، وأمام شرائح تشبهنا وتفهمنا، وتكاد لا تختلف مواقفها وأفكارها عما نفكر فيه، مع أهمية ذلك، كي تظل القضايا مطروحة والمبادئ منظورة ومقدرة، ولكي يتواصل الدفاع عن الحقوق التي يجب أن تبقى مصانة. إذ لا بد من السعي خارج محليتنا، وأبعد من حدودنا وفضاءاتنا، ونقل الحقائق والوثائق إلى الآخرين في أماكنهم البعيدة والقريبة، رغم أنه لم يعد من معنى للمسافات في ظل هذا التواصل الهائل، والوسائل المتطورة التي تضع البشر في قلب الحدث في زمن حدوثه ذاته. وهنا يحدث القصور في

التفسير والشرح، فقد تستخدم الصور، وتجيّر الفضائيات، ويجيش المحللون للكلام قبل الحدث وبعده وفي أثنائه، فإذا لم تظهر المواقف المبدئية، وإذا لم توضع التفاصيل في مكانها المناسب من اللوحة، يضبب المشهد، وتشوه الصورة، وتبهت الأصول، ويصبح المجال مفتوحاً لمزيد من التضليل والتعمية...

إن دور المثقفين هو الأساس في منع حدوث ذلك، أو التقليل منه على أقل تقدير، وهذا لن يكون إلا بالعمل على الساح العالمية باللغات العالمية، وبالوسائل الإعلامية المناسبة، وهذا واجب تمليه الضمائر والرسالة التي اختار المثقف حملها والسير بها.

ولا يغفل عن أن هذا يحتاج إلى قدرات تفوق ما لدى المثقف منفرداً، رغم أن هناك مبادرات هامة؛ فلا شيء يمنع من أن يقول كل رأيه عبر أي منبر عالمي. ولكن التجمعات والاتحادات والمؤسسات الثقافية مطالبة بجهد أكبر في هذا الميدان.

لاشك في أن جزءاً مهماً من ضعف الموقف العالمي تجاه قضايانا المحقة: (مثلاً حقنا في الدفاع عن بلدنا، وتحرير أرضنا المحتلة، ومقاومة العدوان الصهيوني المتواصل والمتجدد، وآخره الغزو الوحشي الشامل على غزة...) يكمن في ضعف الحضور الثقافي العربي، ونقص في المعلومات والأدلة والوقائع لدى الكثير من المثقفين الآخرين في

بلدانهم، مما يحول دون الوقوف الجادّ، أو يحد منه. ونخسر بالتالي ميادين هامة ومؤثرة، يمكن أن تشكل أرضية مكتنزة تدفع الرأي العام هناك، والمسؤولين إلى موقف أكثر صرامة في المنابر والمؤسسات الدولية، التي ما تزال تعجّ بالعثرات والشوائب والتشوهات التي تغذيها المواقف الأخرى المضللة، مبدلة الحقائق، ومستثمرة الإعلام وإمكانياته الكبيرة في تمويه الصورة، وتزييف التفاصيل، وتحريف المسارات.

وليست الصورة في الإطار القريب على أفضل حال، وليس الموقف واضحاً موحداً صلباً، ولكن هذا لا يسوغ للمثقفين أي تردد أو تباطؤ أو تخاذل. ناهيك عن أن من غير الممكن أن يكون المثقف «محترفاً كلاعب كرة» يكتب للجهة التي تسترضيه، يتبنى أفكارها، ويقوم بالتحليل «المناسب» عنها، ويسيل قلمه حسب تغيرات المصالح والمواقف والأحداث، وبناء على إيقاع الرنين والتلويح.

ولا يليق به أن يكون سلعة تباع وتشرى، أو تستأجر لتبييض صفحة أو وجه أو سمعة، أو لتمرير أفكار أو مواقف باستثمار حضوره واسمه ومنبره، إذا كان ذا منبر، وقدرته على تمييع القضية أو توجيه الأسهم وجهة مغايرة للحقيقة جزئياً وكلياً، واعتماده على إضاءة جوانب على حساب أخرى أكثر أهمية وجوهرية يجري تغييبها أو

التغافل عنها... وقد لا يتم هذا في الظل أو وراء الكواليس، ولا تحت الطاولة أو عبر الأقنعة، بل من خلال وسائل الإعلام وأكثرها إلحاحاً، يساعده في ذلك المضيف المحنك والمحضر جيداً، والضيوف الآخرون المختارون بعناية، والوقت الداهم والاتصالات المفبركة المطولة. فيكون المثقف قد وقع في الفخ، وقد يكون مجرد ظهوره على هذا المنبر الإعلامي أو الثقافي شركاً وإنجازاً مقدراً للآخرين، وهو يظن، قد يظن أو يتوهم أو يتذاكى أو يعاند، أنه قد حضر ليقارع الحجة بالحجة.

هذا إذا ما افترضنا حسن النية، في الوقت الذي يتبرع فيه بعض «المثقفين»، لدعم وجهة النظر المعادية، أو المجانبة للحق، نكاية بهذه الجهة الرسمية، الثقافية، الإعلامية أو تلك، أو تشفياً من هذا الشخص أو ذاك؛ مسؤولاً سياسياً أو ثقافياً أو إدارياً... أما إذا كان الأمر عن دراية واقتناع، فتلك مصيبة بل كارثة لا تتوقف نتائجها على المتابعين تشويشاً وتعمية وإرباكاً، ولا على الموقف الوطني إضعافاً وتشكيكاً، ولا على الموقف العالمي المناوئ إمعاناً في استعدائه أو تجاهله للحقوق... بل يصب مباشرة في صالح المعتدي الظالم، يتلقفه ويبالغ في ترويجه للاستفادة منه في سعيه السابق واللاحق لأي خطوة عدوانية جديدة.

ومن الأمثلة التي قد تشير إلى جانب من العمليات الـــتي تبـــدو بريئة، لكن أصداءها ليست كذلك، امتداح الطريقة التي توزع بهـــا الغنائم، وصرف النظر عن كونها مسروقة أو مغتصبة، وعدم التطرق إلى الجريمة التي وقعت في أثناء اقتناصها، ولا على النتائج التي خلفتها الغارة أو الغزوة أو «العملية، أو الإجراءات.. وســوى ذلـــك مـــن الكلمات التي تختار محايدة» يضاف إلى ذلـــك اســتخدام العبـــارات والجمل والصيغ التي تحاول تغييب المجرم أو عدم ترديد اسمه، والابتعاد عن تسمية الأشياء بأسمائها، والاكتفاء بذكر الفعل مجرداً من ألوانه أو أصدائه أو عناصره المثيرة والمؤثرة.

وغني عن القول إن من الضروري أن يكون لأي موقف ثقافـــة تسوغه، تعدّ له، تواكبه وتسوقه، تؤكده وترسخه، وهـــذا لا يـــأتي بشكل عارض أو طارئ أو «عاجل» بل يستوجب تحضيراً وإعـــداداً وإغناء بالمعلومات والوثائق والمحاور التي يفترض أن تسير عليها الخطة الثقافية، إضافة إلى القادرين على الشرح والإقنـــاع. وكلمـــا كـــان الاقتناع حاصلاً، صار الإقناع مسألة أسلوب وإرادة ونشاط وجديـــة ومبادرة... وهذا كله لا يأتي بقرار خارجي، بل لا بد من حـــافز ذاتي وإمكانية شخصية، ورغبة بأن يسود الحق، ويتحقق العدل، مع معرفة مسبقة بأن المسار ليس سلساً ولا يسيراً، والعثرات كثيرة ومعقـــدة،

لأن للباطل أدواته وأساليبه وإمكانياته التي تأخذ ألف لبوس وقناع، وتنتهز الفرص حاجات ونزوات وعلاقات... وتساعد في خلقها أحياناً كثيرة فتناً ودعايات مغلوطة واتهامات ظالمة.. حتى يصبح من السهل الانقضاض على الفريسة التي تقوم بدورها المرسوم والمطلوب.

ليس المثقف ملاكاً ولا كائناً لا يأتيه الباطل من أي سمت، لكنه ليس هشاً يسهل امتصاصه، وليس جاهلاً ليسهل تغافله، وليس مشرعاً للرياح كي يغتنمها، وليس جاحداً ليتنكر لأهله ووطنه وحقوقه وقضاياه... وليس مائعاً يأخذ شكل الوعاء الذي يحتويه، وينفث بخار من يحرقه، وليس ظلاً حتى لعملاق، ولا صدى أو ترجيعاً لأي صوت مهما علا أو عذب...

أو يفترض أن لا يكون!

المثقف الحقيقي ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون...

والفعل الثقافي ليس فعلاً آنياً، وإن كانت لديه أصداء مما يجري، وسينبني على تفاصيله وعناصره، ونتائجه ليست مباشرة. وهو ليس إعلاماً مستنفراً منفعلاً مع أهمية ما ينجز عبر الإعلام، وأهمية المشاركة في التغطية المباشرة ثقة وإزكاء للنفوس وشحذاً للهمم ومساعدة وتحفيزاً؛ بل هو فعل متصل، وجذوة متقدة، وجهد مثابر وتضحية وتفان. ولا بد من أن تكون لديه القدرة على عبور الحدود والسدود

بمهمة أطول، والوصول إلى الناس الآخرين الذين يحبــون الحقيقــة، ويقدرون الإنسان فعلاً لا قولاً ودعاية وحجة.

ولا بد ولا مناص من الاعتماد على التراكم المعرفي والثقــافي، الذي يتشكل ويغتني ويتصلب مع الزمن والتجــارب والمواجهــات والجبهات والأدوات، ومنها اللغات والوسائل الأخرى. فالفعل الثقافي لا يعرف الملل أو التعب أو القنوط.

j j j

ما بين الثقافي والسياسي

لدى كل حدث هام - وما أكثر الأحداث الهامة في تاريخنا المعاصر - تقف الثقافة أمام تحدٍّ حقيقي؛ إذ يظهر المثقفون قبائل شتّى بردود أفعال متعددة ومتباينة...

منهم من يسارع إلى مجاراة السياسي في توجهه والمزايدة عليه أحياناً، فيكسب حضوراً مطرداً وظهوراً متميزاً... وآخرون يُسقطون أفكارهم وآراءهم على ما يجري موافقة أو تأييداً، مخالفة أو اعتراضاً، من دون بناء على رؤيا واعية وأساس ثابت. ومنهم من ينتظر جلاء الموقف، حتى يعلن رأيه المتناسب مع النتائج، فيتجنب الكثير من الحوارات والمواقف.. أما الساكتون فهم كثر!

ويدل هذا التباين على تشرذم حقيقي في المشهد الثقافي، أو حال من عدم التعيين، تظهره الأحداث الجسام. ولعلنا نتحدث عن ردود أفعال ثقافية مهتزة ومترددة، إضافة إلى تباينها، ولا نتحدث عن فعل ثقافي حقيقي مؤثر، لأنه ببساطة غير موجود، وهذه مسألة في غاية

الأهمية نهملها، أو نتجاوزها، كيلا ندين أنفسنا، أو نتغافل عنها هرباً أو خجلاً... وربما إمعاناً في تكريسها، لأننا مستفيدون منها. إذ نستطيع التحرّك في تضاريسها من سفح إلى سفح، ومن ضفة إلى ضفة، ومن رأي إلى فكرة مغايرة... أو لا موقف، لانعدام المعايير أو هلامية المسالك.

وإذا كان من غير المنطقي أو المفترض أو المطلوب أن يكون للمثقفين رأي واحد، وموقف واحد يكفِّر من يخالفه، وإذا كان من الطبيعي أن تتعدد الآراء، ليغتني المشهد الثقافي، ولتكتمل الصورة من جوانبها كافة، ما ظهر منها أو ما خفي أو أخفي، فإن ما هو غير طبيعي، ذلك التباين الحاد الذي يأخذ أحياناً كثيرة طابع الارتجال أو الانفعال، أو العناد وعدم التراجع عن مواقف سابقة وآراء معلنة.

وإذا كان من المفترض أو المرتجى أن يكون الثقافي مرشداً للسياسي، لأن لدى الأول رصيداً من الأفكار والتجارب والوقت والتحليلات والرؤى، يجعله يقرأ الأحداث قراءة متأنية هادئة واعية، ويؤهله كي يأخذ جانب الحق والإنسانية والعدل والحرية من دون تردد أو مداورة، كما أن لديه من الثقة والخبرات والإرادة ما يقوّي من عزيمته، ويؤكد مواقفه، ويدفعه إلى حشد كل الإمكانيات والمشاعر والوسائل في سبيل إبراز رأيه وموقفه والدفاع عنه.

وهذا ليس كثيراً ولا عصياً، لأن القضايا المطروحة ليست

جديدة البنى والأسس والهياكل، وإن بدت ملامح تمظهرها طارئة أحياناً أو مباغتة أحياناً أخرى.

وفي الوقت الذي يكون فيه مسوّغاً للسياسي أن يناور أو يتحرك بمرونة، أو يفاوض في قضية ما من دون أن يؤدي ذلك إلى التهاون أو التنازل عن أي من مصالح الوطن، أو التفريط بأي حق من الحقوق؛ سواء في ذلك القضايا التي تكون للبلد علاقة مباشرة فيها، أو تلك القضايا القريبة أو البعيدة التي تتعلق بشعب آخر أو أمة أخرى، أو مسألة إنسانية أو كونية خاصة أو عامة، لا يمكن أن تسوّغ للثقافي مجاراته في ذلك، وقد يبزّه، لأنه يبدو تابعاً للسياسي. منساقاً لغاياته، منفذاً لتعليماته، وإن كانت غير معلنة أو مكتوبة!

وأكثرها يظهر هذا في الإعلام عند المنعطفات المصيرية، حيث يبدأ المثقفون التحرّك والتزاحم على المنابر الإعلامية، ثم يغيبون دفعة واحدة!

وهذا لا يعني أن يغيب المثقف عن الواجهة، أو يبتعد عن المنابر، أو ينبتّ عن السياسي، ولاسيما إذا ما كانت مواقف السياسي وطنية ومنسجمة مع الرؤيا الثقافية الحقيقية، بل إن من واجب المثقف أن يكون له رأي واضح وموقف بيّن، وأن يعبّر بصراحة ووضوح وجرأة قد يفتقدها السياسي، أو يتجنبها...

ومن المفارقات التي تظهر أحياناً، أن تكون رؤية السياسي أكثر وعياً وتفهماً وجرأة من موقف الثقافي!

إن من مصلحة الجانبين، أو وجهي العملة الواحدة، أن يكــون التمايز قائماً، مع افتراض حرصهما وتوافقهما على الأمور الأساســية والمصلحة الوطنية، وتواصل الحوار في ذلك، ولاســيما في المواقــف الحساسة والقضايا المصيرية.

وليس من اللائق أن يبدو الثقافي مروّجاً أو مزيّناً أو مــسوّغاً... في أثناء الحدث، وغائباً أو بعيداً أو صــامتاً، أو غــير مــسموع في الأوقات الأخرى؛ كما ليس من اللائق به أن يكون في المركب الآخر مناكفاً أو معانداً أو متشفياً... ليس إلا.

ويظل من غير المقبول أن يسكت المثقف عــن قــول الحــق، ويتصامم عن دويّ المعارك التي يخوضها هذا الحق، أو تدار عليه، بأية طرق أو حجج أو دعاوى... ناهيك عن التفرج والشماتة والمشاركة في الرمي المنبوذ، سواء أكان ذلك عن قصد أو من دونه.

أما الطامة الكبرى، فحين يتناقض المثقف بين القــول والفعــل، يقول شيئاً، ويعلن موقفاً، ويفعل ما يخالف ذلك. وإذا كان هذا الأمر يعبر عن شخصية تفتقر إلى التماسك، فإنها غير جديرة بالثقة، وتفتقد المصداقية والاحترام... وإذا ما كسبت لبعض الوقت من خلال مــا

تقول وتعلن، فإنها ستخسر كل الوقت، ممن يعرفون الوقائع، ويكتشفون الحقائق، حتى إن توارت بعد حين. والخسائر الثقافية ليس من السهل تجاوزها، أو ترميم خيباتها، بل إنها خسائر مضاعفة، لأنها تنسحب على الرؤى والأجيال والمستقبل، وتؤثر على الإحساس بالمسؤولية تجاه القضايا الأساسية والمستمرة خلال ظروف الحياة وفصولها المتنوعة.

j j j

فساد ثقافي!

تستطيع أن تأمل وتتفاءل إن فسد كل شيء إلاّ الثقافة! وتزداد قتامة الأشياء، وتسودّ الآفاق، حين تمتد آفة الفساد السرطانية إلى الخلايا الثقافية، فتنقسم بلا ضابط، وتنتشر بلا رادع ولا علاج!

ليس في هذا الكلام مبالغة، وليس فيه تيئيس، بل محاولة أخرى لتأكيد المؤكد، وللإشارة إلى حال مقروءة ومعيشة، وهي بلا شك قائمة يلاحظها العاملون في الوسط الثقافي والمتعاملون معه، ويعاني من أعراضها الكثير من المثقفين، ويمارسها الكثير من المشتغلين في الثقافة على اختلاف مواقعهم وأدوارهم... ولا يتوقف الأمر على المسؤولين الثقافيين غير المؤهلين للمهمات كثيفة المتطلبات، واسعة العلاقات، شمولية المتابعة، متعددة الكفاءات، شاسعة الأمداء، عميقةَ التأثيرات... ولا على الذين يتحملون جريرة تسييدهم، ولا على المحررين الثقافيين الذين يروّجون لمن يحرق الرماد، ويتجاهلون مرارات احتراق اليخضور، ولا على الإعلام الثقافي الذي تتراوح أمراضه بين الجهل والارتجال والتصيّد والتراشق... وتنفيذ المهمات بأي حال! كما لا يتوقف الأمر على من هم أصحاب غايات سوداء وأرصدة قاتمة، يهرعون إلى تبييضها ثقافياً عبر برامج ومسلسلات ومسابقات

ومهرجانات ولافتات ورعايات... بل يدخل في صلب المثقف الـذي يشار إليه باللهفة والتوق والأمل، كما يلاحـق بالـشماتة والتهمـة والإدانة!

المثقف الذي يريق مداده، ويجيّر قلمه ونبرته وسلوكه ومواقفـه جهةً أخرى غير الحقيقة والكرامة والموضوعية.. ومهما كان الـثمن الذي ينتظره، المثقف الذي يستطيع أن يشوه الوقائع، ويزوّر الأفكار، ويـسفّه المواهـب، ويخيّـب الـرؤى، ويحـرّف المبـادئ... المثقف الذي يستخدم إمكانياته وكفاءاته «ومواهبه» لتغطيـة البـؤر الفاسدة، وإقناع المتابعين أن الروائح زكية، والمشاهد تنطـوي علـى إبداعات غير منظورة... المثقف الذي يجور على الفن بإجازته ما ليس فناً، أو بتعيين من يقوم بذلك أو ترشيحه، ويمتدح مـن لا يـستحق، ويكتب ويحكم وفق توجيهات ورنين وموائد...

وصولاً إلى المتلقي الذي يصفق للناشزين، ويحتفـي بالـسذّج، ويكرّم السطحيين... بحجة الفهم والوضوح والتـشجيع والمناسـبة! المتلقي الذي يتكاسل عن السعي حتى للتفكير أبعد مما لديه، ويشارك في الموكب الذي يسير بلا رؤيا ولا رصيد، ويبادر إلى الاتهام، والإلغاء مشاركة مع «مثقفين آخرين»، أو تيمناً بهم، أو صوناً لمـواقعهم، أو إرضاء...

ومن علامات الفساد الثقافي التغني بالديمقراطية واتّهام الآخرين بشرفها، وممارسة كل ألوان الانتهاك فيها، والتمترس حول أنانيـات ومكاسب ونفوذات للنيل من الآخرين. كما يتغنّى بعـض المـثقفين بالمطالبة بحرية الرأي، وإعطاء حق التعبير لهم أو لسواهم، وبما يتـواءم

مع أفكارهم... لكنهم في سلوكهم وممارساتهم «حتى الثقافية منها» أنانيون متسلطون مغلقو الآذان والمسامات في نظرهم إلى الآخرين؛ أما حين يتعلق الأمر في من يوافقونهم، أو من يترقبون أو يتمنون سطوتهم في الداخل أو الخارج، فتكون مرونتهم فوق الاحتمال، وتصبح حتى قضايا مثل المقاومة، والدفاع عن الأوطان بأي شكلٍ وجهات نظر، علينا أن نقبل حتى وصمها بالإرهاب! ليست الثقافة حكراً على أحد، مسؤولاً أو مبدعاً أو متلقياً، وهي ليست ترفاً أو عملاً إضافياً نتقاضى ثمنه حتى من دون أن نؤديه، وليست شعاراً نرفعه ونتاجر باسمه، ونهادن ونتمسح، ونغيّر قناعاتنا، ونسوّغ ذلك بالمعرفة والصداقة والإحراج والخوف من ردود الفعل...

ليست الثقافة عنواناً لصفحات فارغة نملؤها بما تيسّر، وما يريح وما يرضي... أو يدوّن إنجازاً، ويحكي سيرة خاوية، ويقول ولا يقول... ليست الثقافة ميداناً واحداً أو شطراً محدداً، أو زاوية، أو جهة... يمكن أن نبدّلها إذا ما نَتُنَ هواؤها أو أسن ماؤها. الثقافة هاجس وحاجة ورغبة وتوق ونزعة ووسواس... وفساد أية خلية من خلاياها شيوع للمرض الذي يصعب الإفلات من أظلم نتائجه!

j j j

لا تموت ولا..!

نحب للثقافة أن تكون محترمة دائماً، والكفاية مدخل إلى هـذا الاحترام، إضافة إلى شروطه وعناصره الأخرى.

ولكن، لا نحب للثقافة أن تكون مترفة أو مبذرةً، تصرف لمـن يستحق ولا يستحق - وهم الأكثر حظوةً وقربـاً وتقربـاً وإلحاحـاً وإعلاماً... - وتسرف في الصرف حتى يفسد الجو الثقافي، ويـصبح الأمر المادي هو المطلوب والمبتغى، على حساب القيمة والفن والموهبة والإبداع. ويمكن أن تظهر هذه المبازخ على المادة المطبوعة الرديئـة أصلاً، أو طريقة الإعلان، أو المبلغ الممنوح لصاحب العمل الثقـافي، سواء أكان كاتباً أو رساماً أو فناناً في أي نوع من أنواع الفنون؛ كما تظهر الملامح المبالغُ في إظهارها على القائمين على النشاط الثقـافي أو الداعين له.

ولا يعني هذا في حال من الأحوال أن تكون الثقافـة في عـوز وشحّ، إذ تتعذر إقامة النشاط الثقافي المبرمج، أو ذاك الذي له مناسبة

تتكرر سنوياً، ناهيك عن القيام بمبادرات ثقافية هامة، تحتاج إلى موارد ونفقات كبيرة، أو حتى التفكير فيها. وتندرج في هذا أيضاً قيمة ما يصرف على المادة الثقافية المنفذة طباعة أو قراءة أو دراسة أو عرضاً. فتكون من الضآلة بدرجة لا تحفّز القادرين على الحماسة لتنفيذه، ولا تشجع الموهوبين على خوض الغمار الذي يشكل حلماً أو رغبة أو هواية، أو سبيلاً لإظهار بصمات خاصة، تميز هذا الكائن عن سواه، وتخلد ذكراه، ويستطيع من خلاله أن يتطور، وتنمو موهبته، وتتنامى، بتكاثر أمثاله، الحالُ الثقافية نحو الفعالية والجدوى، والصدى الإيجابي المرتجى.

وبين الترف والشحّ مسافة فسيحة خطرة، كما هما الحالان اللتان تحداها. إذ تتنازع المهمومَ الثقافي أفكار ومشاعر، تتراوح هي الأخرى بين الإقبال والإدبار، الحماسة ونفض اليد، الاندفاع والابتعاد، المشاركة والانعزال... وتتناهب الموهوبَ رغبات وخيبات، أصداء متفائلة ومتشائمة، وملامح التساؤل والحيرة واليأس والندم!

وبين الحالين يصبح المجال مفتوحاً للكثير من المزالق والمشاريع غير الثقافية، التي تتلبّس لبوس الثقافة، وتتزيّن بشعاراتها البراقة، وتمتطي متنها القادر على حمل الكثير مما قد لا يمتّ إلى الثقافة بأية صلة.

ألم تصبح بعض النشاطات الثقافية "المميزة" محطات لاستهلاك الكثيرين، أو إغرائهم، أو إغوائهم، أو توريطهم، أو تلويثهم؟ والثقافة لا تحمي الغافلين، كما لا يحميهم القانون! ألم تصبح الثقافة مطية لأصحاب التوجهات غير الثقافية والهوايات والممارسات والمشاريع والغايات؟

دعونا نسأل بشفافية وجرأة ومسؤولية:

أليست مفارقة كبيرة أن تجد شخصاً معنيّاً بالثقافة، مسؤولاً أو مهتماً أو أديباً، يراجع ذا مالٍ أو جاه أو نفوذٍ لرعاية نشاطه الثقافي؟!

والمفارقة الأكبر أن تقوم مؤسسة ثقافية بهذا، بل قد يتوقف قيام نشاط نوعيّ أو إطلاق مشاريع ثقافية على مثل هذه «الرعاية»!

وإذا كانت الثقافة تعني الاستقامة، مقاربة أو جوازاً أو غاية على أقل احتمال، وإذا كان العدل والمساواة والحق من غاياتها أيضاً، فإن استمطار آخرين، أقلّ ما يقال فيهم، إنهم بعيدون عن الاهتمامات الثقافية، أو إن الثقافة في آخر جداول اهتماماتهم، إذا لم تكن إحدى محاذيرهم أو منغصاتهم... ليس مستساغاً، ولا منطقياً. فكيف يُدعى هؤلاء، أو يُرجون لتقديم الدعم لهذه الندوة أو ذاك المهرجان؟ وهل في صالح الثقافة أن تتقدم أسماء النافذين القادرين أسماءَ الأدباء المرموقين،

أو تجاورهم على الأقل، في اللافتات والدعايات والبطاقات والكراسي؟

وتكاد تمحو بألوانها وفخامتها الفعل الثقافي ذاته، والمناسبة التي يقام من أجلها، والمشاركين فيه، مهما علت قاماتهم الإبداعية والفكرية! وإلى أية درجة يمكن قبول إقامة المهرجانات الثقافية، والمناسبات الثقافية الأخرى، تحت يافطات أو شعارات متوّجة بآيات الشكر والامتنان والعرفان للرعاة «المحسنين» الكبار، أصحاب التقدمات والمساعدات والهبات، أصحاب الجاه والمصالح والمكرمات، أرباب المبادرات والنّعم التي تغدق على المثقفين البائسين الشحاذين المتسولين، مساعدة أو مكافأة أو مشاركة أو مباركة... يؤمنها اسم هذا الممول الفذّ، أو شعار هذا المتبرع الميمون، أو خاتم ذاك القادر المتخم بالغيرة والاتهام والانتّقام والسخرية، والاستخفاف بالثقافة وروادها ومشروعها ومستقبلها!

ومن المعروف والمنتظر أن يقابل هذا - أو يُستبَقَ - بالمديح المنظوم والمنثور، والمعلق على عيون المحتاجين!

وليس ذلك خدمة للثقافة والمثقفين، ولا رؤيا ثاقبة لأهمية الثقافة في المجتمع، ولا بوادر تنويرية تنمّ عن رغبة أو أمنية ناصعة بنشر الوعي الثقافي، وتجويد الأداء الثقافي، وتجديده وتعميمه، وتشجيع المبادرة فيه.

إنه غسيل أموال ثقافي، أو تبييض ثقافي لاسم أو مشروع أو ظاهرة!

فهل ننسى أن المشروع الثقافي الحقيقي، يقوم على محاربة الفساد والكسب غير المشروع أو غير المراقب، والأداء المصلحي الضيق؟ وهل يجوز لنا أن نتناسى أن المشروع الثقافي الحقيقي، يخالف أو يعاكس جلّ مشاريعهم، التي نشكو من طغيانها وامتداداتها وآثارها على الواقع والمجتمع والناس؟ وإذا كانت الموضوعات الأدبية في غالبيتها تدين الابتذال والتزلف، وإراقة ماء الجبين ومد اليد، حتى من قبل ذوي الحاجات الخاصة، وتحاول أن تعرّي، أو تكشف النصب والاحتيال والاستغلال والثراء غير المشروع... وتتساءل، أو يحق لها أن تتساءل: من أين لك هذا؟! وتطالب الجهات المسؤولة أن تسأل وتسائل وتحاكم.. فكيف ستكون الحال الأدبية وهي تنتشي تحت شآبيب عطاء كائنات، نبتت، وصعدت، وأثمرت في غمضة من عين الثقافة، أو غفلة القانون، أو تغافل جهات عاجزة أو مستفيدة؟

صحيح أن التعميم لا يجوز، وأن من بين أولئك «الرعاه» من جهد واجتهد وتعرق، وتحمل الأعباء والغربة والمتطلبات... وأن من بينهم من كان لهم شغف ثقافي، وقادتهم الظروف إلى ميادين أخرى، فجعلوا من اهتماماتهم بعض النشاطات الثقافية المميزة... تنفيذاً لحلمٍ قديم، وتكفيراً، ربما، عن خطوهم خارج هذه الآفاق.

من دون أن ننسى تأكيد أننا لسنا ضد أي سعي أو جهد أو عمل شريف لرفع شأن البلد، والاستفادة من إمكانياته وطاقاته في بنائه، وتأمين فرص عمل لأبنائه، ضمن القانون والمشروعية.

لكنّ الثقافة أمر آخر، ومشروع آخر، ورصيد آخر، وغايات أخرى، وغنى مختلف؛ فلا تُدخلوها في المهاوي، ولا تحمّلوها مسؤولية تبرئة المرتكبين الذين نسمع عن أفعالهم وتجاوزاهم واحتكاراهم الكثير؛ فكيف يمكن أن نقبل رعايتهم للثقافة!

والغريب في هذه المسألة، إضافة إلى خطورة ما ذكرنا، أمور أخرى، الأول: أن تترك الدولة بمؤسساها الثقافية وإمكانياها غير القليلة، أمرَ الرعاية لهؤلاء الأسخياء. والثاني: أن يتسول أمرَ الرعاية أصحابُ نشاطات يترفّعون عن مشاركة المؤسسات الثقافية في النشاطات التي يقيموها، ويرضون أن تتبوأ ألقاب الممولين وشكرهم وامتناهم ذروة دعواهم ويافطاهم. والثالث: أن يقبل الكثيرون من المثقّفين أن يشاركوا في هذه النشاطات ذات الرعاية غير الثقافية أو غير «النظيفة» بلا مقابل، ويطالبون المؤسسات الثقافية بالأجر والأتعاب والمكافآت عن أيّ جهد مهما كان ضئيلاً، وعن أية مادة مهما كانت متواضعة.

نعم. إن هناك من المثقفين من يلحّ على أمسية أو محاضرة أو

ندوة... ناهيك عن مراجعة مسؤولين لا علاقة لهم بالثقافة، والطلب من الجهات الثقافية أو المؤسسات الثقافية مسايرة فلان، أو تنفيذ رغباته في الحضور على المنابر أو النشر في الدوريات، وحتى في نشر الكتب... وهذا السلوك غير مستحب، وممجوج ومستهجن، وله آثار سيئة، حتى لو بقي فردياً، إذ إنه تسوّل بشكل أو آخر، فكيف تكون الحال إذا ساد التسوّل من جهات أو أشخاص مشبوهين ثقافياَ، أو إنسانياً، والتظلل بمظلاتهم القاتمة، والانتشاء من سوائل موائدهم الحارقة، والرقص على رنين ضحكاتهم الشامتة!

إن في هذا تعمية للثقافة، وتشويهاً لمعالمها وسمعتها، وتقزيماً لقامتها المتسامقة، وتعميماً لمفاهيم جديدة ومصطلحات مستجدة تسوّغ الفساد، وتوهن الحصون، وتسهل عمليات الانزلاق في براثنه.

وعلى الثقافة أن تبقى عصية على الامتلاك، والابتلاع والتشوه والانتهاك...

لقد قيل قديماً:

تموت الحرة ولا تأكل بثدييها!

أليس من الشرف للثقافة أن تموت، ولا تأكل بمبادئها وأخلاقها وإنسانيتها! ولا تساوم على استقامتها ونظافتها، ونصاعتها في العيون، وقيمتها في القلوب!

والثقافة لا تموت... لأن عناصر الحياة مشرقة في كل لهفة

وتوق، وملامح التخلّق منبعثة من كل ثلم، وأشرعة الإبداع تخفق في كل تقطيبة وآه...

قد تغص قهراً، وتنقبض مرارة، وتنكمش خيبة... لكنها سرعان ما تجد من يحمل الراية، ويفتح يديه للدّفق المقطّر من مزن عليّة، لا من مخلوقات زاحفة لاهثة!

j j j

المسؤولية الثقافية

لكل موقع متطلباته: قدرات معرفية وخبرات إدارية وأساليب تعامل مع الآخرين، داخلياً في الحيّز المعني وظيفياً، أو خارجياً يتعلق بالمراجعين والمهتمين والدوائر التي لها علاقة بأيّ شكل أو أية وسيلة. بيد أن الأمر في الثقافة يأخذ طابعاً متميزاً، كون العمل الثقافي يقوم أساساً على إفساح المجال للآخرين، كي يبدعوا قولاً أو كتابة أو طباعة أو رسماً أو لحناً أو أداء... فالمسؤولية الثقافية ليست واجباً إدارياً أو وظيفياً فحسب. إنها مشروع وقضية، وسبيل إلى الغاية الأسمى التي لا يدركها إلا أهل الثقافة ومكابدوها شوقاً وتوقاً.

وبالتالي تختلف المسؤولية الثقافية عن المسؤوليات الأخرى اختلافات مهمة، ليس من حيث القوانين الناظمة وضرورة تنفيذها، بل للروح التي يجب أن تكون لدى المسؤولين الثقافيين. ومما لا شك فيه أن روح القانون لا حرفيته مهمة أيضاً في قطاعات عديدة، وليس في الثقافة وحدها، على ألا يؤدي ذلك إلى انحرافات عنه لصالح فئة أو جماعة أو مسؤولين.

لكن للعمل الثقافي عناصر إضافية يفترض توافرها في المشتغل في هذا الوسط، مسؤولاً بأية درجة من درجات المسؤولية، أو أية حـال من حالاتها، سواء أكان ذلك خلال الأداء الوظيفي، أو التواصل مع المثقفين، أو أصحاب المواهب، أو أصحاب الاهتمام.

وهذه العناصر تتعدد، وتتنوع، من الاحترام إلى حسن الوفادة، إلى جدية التحضير، إلى التصرف اللائق، ووفرة الاهتمام، والصدى المجدي.

وقبل هذا وفي أثنائه وبعده، ذلك الهاجس الثقافي الذي يجعل الثقافة لدى حامله قضية ومشروعاً دائم الحاجة إلى الترميم والتعزيز والانطلاق إلى فضاءات أبهى، وأقدار أسمى...

وحين يكون المطلب الرئيس للقائمين على العمل الثقافي، أن يكون ما يقدّم متطابقاً أو منسجماً مع أفكارهم ورؤيتهم ورغباتهم... فإن المؤسسة الثقافية لا تختلف عن أية مؤسسة خدمية أخرى، من دون الانتقاص من قيمة تلك المؤسسات وأدوارها، «فالمسألة تتعلق بالخصوصية لا بالتقويم» وتتحول المؤسسة الثقافية حينئذ إلى مؤسسة ميتة، إن لم تكن مصدراً للخيبة والإحباط والانكفاء. وهذا مطبّ خطير يجب أن تبتعد عنه مؤسساتنا الثقافية. إذ إن أسَّ الثقافة التنوع والتعدد، وتقديم التجارب والرؤى التي يراها أصحابها صائبة، أو يقتنعون بها وبجدواها، وعلى الآخرين إبداء الملاحظات حولها قبولاً أو

رفضاً. وبناء عليه يتم التصويب، بعد الاقتناع الناجم عن الحوار الجدّي طبعاً. وهذا أيضاً من صلب العملية الثقافية.

وهنا يبرز دور المسؤول الثقافي وهاجسه الحقيقي، وتظهر جدارته، وأريحيته في التعامل مع وجهات النظر المختلفة، وطرائق التعبير المتباينة، من دون أن تبتعد الحال عن أن تكون الغاية إنسانية رحبة منفتحة على جميع الكائنات التي تتعايش، وتتشارك الهموم والأماني، وتحاول البحث عن شروط أفضل للعيش الكريم. وليس مبالغة القول إن كثيراً من المسؤولين الثقافيين لا علاقة لهم بالثقافة، لم تكن من اهتماماهم قبل أن يأتوا «أو يؤتى بهم» إلى هذا الموقع الثقافي أو ذاك، ولم تصبح من بين رغباهم أو تطلعاهم أيضاً خلال عملهم الثقافي، وليس لديهم الحافز، ولا الاستعداد له. وإن كثيرين منهم تتشابه أدوارهم مع أو أية مسؤولية أخرى خارج الثقافة...

وهذا - مرة أخرى - ليس انتقاصاً من أهمية هذه المؤسسات غير الثقافية أو مسؤوليها، على الرغم من أن الثقافة ضرورية لكل المواقع وكل المفاصل.

ولكنه إشارة إلى أن بعض المسؤولين الثقافيين، قد يصلحون لمثل هذه الأدوار أكثر مما يفيدون في مراكزهم.

والغريب في الأمر أن بعضهم يصرح أن هذا الموقع الثقافي

لايحتاج إلى اهتمام ثقافي، أو خبرة ثقافية، أو إنجازات ثقافية، أو سمعة ثقافية، بل يحتاج إلى خبرات إدارية! وليتها موجودة لديهم! من دون أن ننسى أن الخبرة الإدارية ضرورية للمسؤول الثقافي، لأن من المؤكد أن ليس كل مثقف يصلح للموقع، وليس كل مبدع ينجح في الإدارة... ولكن يجب ألا تكون الخبرات الأخرى بديلاً من الزوادة الثقافية أو منبتّة عنها، وعندها يصحّ قول أحمد شوقي على لسان قيس ليلى، حين أتوه بشاة بلا قلب: «وكيف يداوي القلب من لا له قلب؟.»

والأغرب أن يرشّح المعنيّون أمثال هؤلاء ليشغلوا المسؤوليات الثقافية، متغافلين عن العشرات الذين يستحقون، ومتجنبين العديد من الذين يليقون بها، متجاهلين رغبات الكثيرين الذين يتمنّون أن يكون أهل الثقافة في المواقع الثقافية..

وليس هذا سوء اختيار أو سوء تدبير أو جهلاً فحسب، بل إن كثيراً من النيّة والقصد والخبرة والنباهة والذكاء... وراءه، لكي لاترفرف أجنحة الثقافة أبعد من حدودهم، ولكي لا تغرّد الأَصوات أبعد من آذانهم، أو تشدو بألحان أعذب مما اعتادوا أن يسمعوا، كي لا تفوح روائح أزكى، أو تشعّ ألوان أبهى. وليس غريباً القول إن الأمر يجب ألا يكون في أيّ حال من الأحوال ترضية، أو تعويضاً، أو ترميماً لبعض ممن فقدوا مواقع أخرى...

وليس كثيراً أن نقول إن من كان مسؤولاً حزبياً أو نقابيـــاً، أو في أي مجال مشابه، ليس من الضروري أنه يصلح للعمـــل الثقـــافي، وليس مبالغة القول إن هؤلاء بالذات هم أقل الناس صـــلاحية... لأن إدارة العمل الثقافي تختلف، وربما تتناقض مع ما كانوا يفعلون!

فشتّان ما بين الانغلاق والانفتاح، وشتّان ما بين التعامـــل مـــع منتسبين وأعضاء، ومهمـــات وواجبـــات، وتكـــتلات وتكتيكـــات وحسابات ضيقة، وبين الحركة في أمداء وفضاءات، والتعامـــل مـــع كائنات حساسة منطلقة، وأفكار حـــرة، ومبـــادرات ونـــشاطات، ومشاعر متصلة من دون قيود أو حـــدود... إلا حـــدود الكرامـــة الوطنية...

إن المسؤول الثقافي شحيح الثقافة، ضيّق الرؤى، قليل الاطلاع، الخائف على مركزه الذي حصل عليه من دون جدارة أو مـــن دون حق، سيقف أكثر من حجر عثرة في طريق نشر الثقافة وتعميم المعرفة وتنويعها. وسيتعامل بانتقائية تؤمن له إنجازات مجدوَلَـــة تمـــلأ الأيـــام المناسباتية العديدة، يتفاخر بها أمام رؤسائه أو واضعيه، حتى إن كانت من حيث الفحوى والنتيجة ليست سوى أصوات جوفاء، ومواعيـــد مقررة، وموضوعات مسطحة، ومعالجات هشة، ونـــصوص عقيمـــة، وأفكار مكرورة... ويستطيع إبعاد الموهوبين الذين يمكن أن يخرجـــوا

عن الخطوط التي يتوهمها حمراء بكلمة أو عبارة أو ملمح، ويحاول بكل قواه وقوى الداعمين له إقصاء أصحاب الإمكانيات القادرين على التواصل، وإعطاء الآخرين فرص التعبير عن أفكارهم ومواهبهم، عبر المنافذ المتاحة والمخصصة أصلاً لذلك.

إن المسؤول الثقافي المتشبث بالكرسي وأفكاره، وفهمه غير الثقافي للمسؤولية الثقافية والإبداع والمعرفة، من خلال قدرته على المنع أكثر من الإتاحة، ورغبته في القول أكثر من الاستماع الإيجابي والفعل المجدي، وحرصه على القوالب الفكرية والأخاديد المعرفية أكثر من المرونة والبحث والحوار.. ليس موقعه في الثقافة، وما أكثر المسؤوليات الأخرى وأغناها! فليختر واحدة منها إن كان قادراً على الفرض، أو ليختر له المحبون مكاناً آخر. وليرحموا الثقافة ومؤسساتها ومنابرها ومنافذها التي تود أن تزدهي بالإبداع الإنساني، والجهد الفكري، والرؤى المؤتلقة...

والأغرب الأمَرّ أن يكون المسؤول الثقافي محسوباً على المثقفين، فيختال مرتاحاً إلى سمعته ووضعه وعلاقاته، ويستطيع أن لا يعمل إلا في الحالة الدنيا، التي قد تكون معدومة. ومع ذلك، فهو قادر على منع الآخرين من أن يقوموا بأيّ نشاط، حتى لو كان بدأب شخصي وموهبة وجدية وحب للعمل والفن، ولسنا بصدد تعداد الأسباب التي منها الحسد والغيرة والأنانية... ويستطيع أن يطبع العمل الثقافي بطابع آرائه وأفكاره وغروره وقراراته وأهوائه وكسله، وتسيطر إيقاعاته

رغم شحوبها، وظلال روحه القائمة على المنظومة المعرفية والنشاطات الثقافية.

وما بين الحالين، يتعذّب أصحاب الرؤى والأفكار، وتقلّ المبادرات، وتنوس المواهب، وينوء الحامل الثقافي تحت وطأة العجز عن بثّ الروح في فروع الحياة وأغصانها المتشعبة، وتسود قوى ليست ناصعة، وطقوس وظروف أقل ما يقال فيها وحولها إنها لا تسر، ولاترضي من يود العيش برضا وامتلاء وكرامة وأمان وإشراق...

j j j

المسؤولية والمشاركة

من المثير للاهتمام والتساؤل، ما يلاحظه المتابع للحركة الثقافية عامة، والأدبية خاصة، من فردية في العمل حتى في المؤسسات الثقافية؛ إذ يكاد العامل الشخصي أن يكون هو المحرك الأساس لعمل يُفترض أن له طابعاً تشاركياً، أو جماعياً أو مؤسساتياً.

من المهم أن يكون للمرء رؤيا خاصة، تلخص معارفه وخبراته وتجربته في هذا المجال أو ذاك، وربما – وهذا مهم لو كان محققاً - يكون قد اختير لهذا الموقع بناء على افتراض ذلك، ولا يمكن أن ننسى دور العامل الشخصي في أي مجال وأية مهمة أو مسؤولية. لكن هذا الأمر يفترض أن لا يجعل الآخرين كل الآخرين منفّذين لما يراه هذا المسؤول؛ بل لا بد من أن يطرح رؤيته أو أفكاره حول تطوير العمل أو إغنائه أو تنويعه على الذين لهم علاقة مباشرة بسيرورته، وعليهم مسؤولية كبرى في إنجازه. وإذا ما استطاع إقناعهم بجدوى ما يريد، واستفاد من ملاحظاتهم، واحترم آراءهم، حتى تلك التي لم يقبلها، فإن إمكانية أن يكونوا مساعدين حقيقيين له تزداد، وإمكانية إقدامهم على العمل بأريحية، والسعي الجدي لإنجاحه تصبح أكثر احتمالاً.

أما إذا أُهملوا، ولم تتم استشارتهم في ذلك، وتحوّل الموضوع إلى قرارات يجب أن تنفذ من دون مناقشة، فإن العقوبات والتهديــدات والتحذيرات لا تكفي كلها، ولا تفيد، وتتحول الساح إلى معركة من الاتهامات والإدانات والإساءات الخفية والعلنية، والمحاولات الــسرية أو المكشوفة لعرقلة العمل، والابتعاد عن ميادينه بأية حجــة وعلّــة، والتقليل من شأن أية فكرة أو رؤية أو مبادرة... وقد يزيد الأمر تأزيماً أن تصدر أوامر، وتعمم تعليمات، وتذاع مشاريع وتوجيهــات مــن دون الرجوع إلى العاملين المعنيين في المؤسسة، وقد تــتم الاســتعانة بآخرين من آخر الحيّز، أو من موقع آخر... ربما! فتشتد المواجهــة، وتضيع الجهود ويزداد الشرخ، وتتضاعف المسافة المهدورة زمنيــاً في سباق العجّز، أو حوار الطرشان... والنتيجة خسارة الجميع، وخسارة المؤسسة والوطن أيضاً.

وتصبح الحال كارثية، إذا ما كان هذا المسؤول قد وصــل إلى هذا الموقع بقدرة قادر، من دون أن يكون لــه رؤيــا أو أفكــار أو مشروع، ويمكن أن يكون من خارج العلاقة بهذا العمــل «الثقــافي خصوصاً». فهناك حينئذ أمران أحلاهما مــرّ: أن يــرتهن للعــاملين، ولاسيما الأكثر نفوذاً بينهم، في كل ما يريد، ويصبح بالتالي مكــسر عصا، يتقاذفونه فيما بين رغباتهم وغاياتـــــــــهم و... مــصالحهم! أو لا يقبل لنفسه أن يسأل أو يستشير، بل يبدأ بفرض ما يريد ويرتئي

من قرارات تبدو شاحبة وبائسة وواهنة من حيث القيمـــة الفعليـــة، والقدرة على الإقناع والاستمرار، فيسهل على الكـــثيرين تفنيـــدها وتقزيمها ومواجهتها. ويزيد الطين بلّة حين يستعين هذا المعيّن الثقـــافي بمن عيّنه، ذاك الذي لا يبزّه مقدرة وخـــبرة وثقافـــة... أو أن لديـــه غايات ورغبات أخرى، فيضيع العمل، ويـــصيب المؤســـسة العجـــز والخواء، والنتيجة خسارة مضاعفة!

الشواهد على ذلك عديدة، والأسئلة التي تثار ليست قليلة...

فلماذا يحدث أن يكون مثل هذا الشخص غير القـــادر وغـــير المحصّن ثقافياً ومعرفياً في هذا الموقع الثقافي! مـــن دون أن نبـــالغ في السذاجة، فنسأل: لماذا يقبل هذه المسؤولية؟

ولماذا لا يكون لدى الشخص المعزّز، والذي له جهوده وخبرته في المجال الذي قيّض له أن يكون فيه، إمكانية التواصل المحتـــرم مـــع العاملين المقربين منه إدارياً ووظيفياً ومسؤولية واهتمامـــاً، وإمكانيـــة التشارك الحقيقي في المبادرة والمشروع والإنجاز؟ من دون أن ننسى أن من الممكن أن يكون لدى هؤلاء العاملين، أو بعضهم علـــى الأقـــل، نفور من مثل هذا التعامل، هذا الذي يمكن أن يحلّ بالحسنى، بالتـــأنّي والخبرة والثقة والصلاحية والمصلحة العامة.

ويمكن أن نتساءل: لماذا يصرّ المسؤول على أن يبدأ دائماً مـــن

الصفر! وأن يقلب كل ما كان ويعدّه خراباً! وأنه المخلّص والمنقذ!

إن هذا لوحده يترك أثراً سلبياً لدى من كان له علاقة بذاك العمل، ومنهم من ما يزال في الموقع، ويحتاج هذا المسؤول الفذّ إلى وقت وجهد مضاعفين لإقناعهم بجدوى ما يريد، أو لإرغامهم على تنفيذه؛ من دون أن نتغافل عن أن من بين هؤلاء أو من خارجهم من يمالئون وينافقون ويحمّسون...

ويتطاول السؤال بمرارة:

لماذا لا يكون لأعمالنا طابع البناء وإمكانية الاستمرارية من بعدنا؟ هل إننا وحدنا الأفذاذ! أم أننا جميعاً خالدون؟

j j j

الحراك الثقافي

قضية لا بد من الحديث عنها، لأنها تتكرر.

أن يكون فعل، ذلك أمر مطلوب ومقدر ومرتجى وهام؛ لكن الأكثر أهمية وترقباً ومسؤولية، أن يكون الفعل أكثر جدوى.

ولن تكون الحال كذلك إلا إذا كان وراءها وعي وتفهم ورغبة وإمكانية، وقبل كل ذلك وفي أثنائه، لا بد من النية الصادقة للإنجاز، وإن كانت لا تكفي وحدها، كما لا تكفي الأخلاق منفردة.

وإذا كان هذا الأمر يصح في مختلف ميادين العمل والنشاط، فهو بالغ الأهمية في الميدان الثقافي، حيث الجهد المطلوب كبير، والفهم المبادر ثمين، والوعي بذلك لا يقدر بثمن؛ رغم أن الأجر يبدو ضئيلاً، أو معدوماً، والثواب معنوي، والجدوى تراكم معرفي وثقافي، وتحفيز على المشاركة، وتعوّدٌ على الحضور، وتكريس لحال ثقافية حيوية خصبة فعالة، واجتذاب للإمكانيات، ودعوات لأصحاب المواهب...

وهذه القدرات وتلك المواهب يمكن أن تكون ضائعة أو منكفئة أو يائسة أو مغيّبة، وتحتاج إلى الكثير من العمل، والكثير من

المصداقية، حتى ترضى أن تعرف بنفسها، أو كي يتم الوصول إليهـــا، وإقناعها بالمشاركة، وتتطلب جواً ملائمـــاً لحياتهـــا نمـــواً ونـــضوجاً واستمراراً، وهذا ما يفتقده العديد من فسحاتنا الثقافيـــة، ومنافـــذنا؛ سواء تلك الإعلامية منها وبأنواعها، أو المؤسساتية المعنيـــة. والأمـــر لايتعلق بالفرص المتاحة، والمناسبات التي تتكرر وتتكـــرس نـــشاطات ومهرجانات وملتقياتٍ ومسابقاتٍ وبرامج وإحياءات... بل يـــرتبط بمفردات هذه الفعاليات، وعناصرها، والمشاركين فيهـــا، والـــداعين إليها، والمدعوين، والمساهمين في تمويلها، والقائمين عليها!

فالفرق كبير بين أن تؤسس لفعل ثقافي يدوم ويتنامى ويتصاعد، وبين عمل غايته الشهرة والإعلام والبروظـــة، "وتبيـــيض" الـــسمعة والمركز وربما الأموال!

ومن أجل تأمين هذه التغطية "الثقافيـــة" لنـــشاطات تبتعـــد في مسارها ومبتغاها قليلاً أو كثيراً عن الفعل الثقافي الحقيقي، يلجـــأ إلى الاتكاء على المشهورين و"النجوم" الذين يؤمنـــون صـــدى إعلاميـــاً وحضوراً "جماهيرياً" واهتماماً رسمياً، مما يجعل الحديث عن ذلك هـــو السائد وهو المطلوب! من دون الحوار حول ما قدم، ومدى إبداعـــه وفعاليته وجدواه في الحراك الثقافي الحقيقي، وفي حياتنا الواقعية فعلاً.

حتى أصبح الكثير من "الأدبـــاء" و"البـــاحثين" و"المفكـــرين"

مطلوبين أكثر من نجوم الغناء والطرب، ويحتاج الحـــديث معهـــم إلى مواعيد، ناهيك عن مواعيد استقبالهم، وإحيائهم "للحفلات" الثقافيـــة المتعددة، وأجور بعضهم أيضاً؛ إضافة إلى الشروط الأخرى.

ولا بد من تأكيد أننا مع أي نشاط له أبعاد ثقافيـــة، وظـــلال ثقافية، ولسنا ضد أي من المثقفين والأدباء والمحاضـــرين، حـــتى لـــو اختلفنا مع بعضهم في السلوك، والآراء، والبطانة، والعلاقات، وربمـــا الغايات...

ولكننا نفكر في تعميق الحال الثقافيـــة، ونـــشغل بتأصـــيلها، وإخصابها... أكثر.

فمن الطبيعي أن يقدم كلّ نفسه وفق رؤيته وخبرته وتجربته، وفي الغالب الأعم ستبقى المادة المقدمة، أو المواد، من دون نقـــد، أو أي حوار حولها، ربما، لأن هناك من يعدّ هذه الأسماء خارج النقـــد، إن لم نقل فوقه، وإن كان رأينا يخالف ذلك تماماً. فما من تجربة وصلت حد الكمال، وما من نص يتعالى على النقد، وما من اسم يلخص الإبداع أو يختزله لوحده.

وإذا كانت القضية ستقف عند هذا الحد، وهذا ما يحـــدث في الغالب، يفترض أن نتساءل: ما الذي نكون قـــد قـــدمناه للمـــتلقين المألوفين والجدد، وللشبان الموهوبين، وللتجارب التي تتلمس طريقها!

والتي قد تتجاوز من اكتمل مشواره، ويوزع نجوميته علــى المنــابر يومياً. ولا مشكلة عند الداعين، حتى لو قدم المدعو نصّه عينه في جميع المواقع ذات المناسبات المتشابهة، أو حتى المتمايزة لأن الأهــم لــديهم حضوره وإطلالته، ونجاح النشاط جماهيرياً وإعلامياً.

إن الحراك الثقافي يتطلب تفــاعلاً بــين المــتلقين وأصــحاب المشاركات، ويتطلب تواصلاً بين الأجيال والتجارب.

وللأسف نقول: تعوّدنا أن نكون مع الظاهر والمعروف والعَلَــم والنجم، كما نكون مع المسؤول في أية درجة على الآخرين... رغــم أن الآخرين قد يكونون أهم، وأحق، وأجدر!

وننهال بالتقريع على الأصــوات الجديــدة الــتي تحتــاج إلى التشجيع، وبالحماسة نفسها نصفق للواصلين، أمــامهم، ويمكــن أن نشتمهم في السر، أو نسكت على الأقل، وهذا لا يقل نفاقاً وأذى...

إن الحراك الثقافي لا يكون حقيقياً ومجدياً بالحركة الارتجاليــة أو التحرك على السطح إعلامياً ومناسباتياً، وبــرامج مقــررة يفتــرض إنجازها، إنه يتطلب عملاً في العمق، بحثاً وجهداً وحواراً ونقداً ومتابعة ومثابرة وحضوراً لائقاً مديداً، ومعاناة واحتراقاً وهجــساً وانــشغالاً واحتراماً...

إنه يستوجب نبضاً حقيقياً، لا نبضاً انفعالياً آنياً مستورداً مــن خارج المحافظة أو القطر أو خارج الإبداع، يغيب مع انتهاء العــرض وانقضاء المناسبة.

كما يغيب الإحياء المناسباتي الواجب والتـصفيق المواكـب... وتبقى الملامح الجادة القلقة، التي تبحث عن ملمس أو متكأ أو مسوّغ أو إشارة أو جواز لإعلان إشراقتها، واستئناف خطوهـا في مـسار الإبداع الشائك الشائق.

j j j

حرمان ثقافي!

يحكى أن ثلاثة أدباء توجهوا بكامل قيافتهم وسمعتهم ومسؤولياتهم الثقافية، إلى أحد المواقع الثقافية لإقامة نشاط أدبي، تلبية لدعوة تلقوها من مسؤول الموقع هناك. وبعد مسافة السفر ومشقة الصعود، وصلوا بعون الله وحافز لهفتهم للقاء جمهور الأدب والثقافة في هذه المنطقة التي يؤمونها للمرة الأولى، مع بعض تأنيب ضمير لعدم قيامهم بنشاطات هناك قبل ذلك. لم يصل توهمهم إلى حدّ أن يتخيلوا ازدحاماً جماهيرياً وحماسة وتدافعاً لحضور النشاط، فقد اعتادوا على (الكرام..)؛ لكن خيالاتهم الأدبية المستعدة للجموح دائماً، لم تتصور أن يقتصر الحضور على المسؤول الثقافي صاحب الدعوة وحده!

ورغم استقباله الباش، فقد بدا محبطاً مع عبور الموعد المحدد للنشاط. وقد أبرز بطاقات الدعوة المطبوعة، ليؤكد أنها وزعت حيث يجب، وقد تفهم الأدباء الموقف، ولاسيما أنهم كانوا قد قرؤوا الإعلان في الصحف.

وقبل أن يحوم الشك في دواخلهم حول سمعتهم الأدبية، رغم

أنهم «معروفون» في المحافظة على الأقل، وقبل أن تدور الأفكار المعهودة عن الجدوى، عرف السبب، وهذا لم يبطل العجب، بل ازداد وتضاعف... وما يزال يتضاعف العجب والاستغراب والمرارة والغضب ربما... لأن السبب ما يزال قائماً، والوضع على حاله، ربما ليس في المكان ذاته بالضرورة، رغم أن الحادثة تلك مضى عليها أعوام...

المسألة ببساطة وأسى أن هناك «عدم رضى» من أصحاب الأمر والنهي في المنطقة عن المسؤول الثقافي!

وبصرف النظر عن الأسباب التي أدت إلى هذه المشاعر، وعن الجريرة التي يمكن أن يكون ارتكبها، إذا ما كان من جريرة قد تصل إلى حد تعيينه من دون تبريك أو ثمن، مع العلم أنه ليس من أصحاب الشوارب المفتولة ولا العضلات البارزة. وبغض الطرف عن أسباب عدم الود من قبل أولي الأمر هناك تجاه هذا المسؤول، فإن السؤال الذي يتضخم لتجرح أصداؤه أصحاب المواهب والاهتمامات الثقافية، والرغبات بتمضية وقت في الاستماع إلى محاضرة أو أمسية أو أي نشاط ثقافي آخر، لا يني يرتد شوكياً:

بأي حق تحرم منطقة بكاملها من أي نشاط ثقافي! ولاسيما مثل تلك المنطقة البعيدة عن مركز المحافظة!

وإذا ما كان الموقع الثقافي في أي مكان هو المتنفس لأبناء المنطقة، وعلى الأخص من كان منهم موهوباً ينتظر فرصة لإظهار مواهبه، أو ليشاهد من هم من أصحاب الهم ذاته، ويستمع إلى تجاربهم، ويتبادلون الهموم والشكوى، ويستولدون الأمل... يسألهم ويستفيد من تواجدهم وإمكانية مساعدتهم له في مشواره الصعب، فإن ممانعة مثل هذا النشاط أو حتى عدم مساندته ودعمه وتشجيعه وإنجاحه، يعدّ مسألة بالغة الخطورة. وبخاصة أنه يأتي في سياق الثقافة التي «هي الحاجة العليا للبشرية...»

فكيف يمكن لمسؤول، أياً كانت درجة مسؤوليته، أن يقف مثل هذا الموقف! وكيف يمكن لمن يعرف هذا من المسؤولين الأهم أن يسكتوا عليه، أو يتغافلوا عنه، أو يتناسوه!

ومما يزيد الأمر قساوة وألماً، أن من يتخذون هذا الموقف، لاينفكون يتحدثون عن ضرورات التطوير والتثقيف، ويتمثلون قيم الأخلاق، والنضال، والصمود في وجه الأعداء الذين يعملون على ضرب الروح الوطنية والقومية، وإضعاف الشخصية، بجميع الوسائل الممكنة، ولاسيما الغزو الثقافي! فهل بهذه الأساليب يواجه الغزو الثقافي! أليس هذا أشد خطراً من ذاك الغزو؟

لا أظن أنها المرة الأولى التي يمكن أن يكون المكلفون بمهام

لايعجبون المسؤولين عنهم. فهل يعني هـذا أن تلغـى المؤسـسات، وتتعطل مصالح العباد، وتتوقف حركة البشر ورغباتهم وربما أحلامهم، إذا لم توافق الجهـة الـتي يرغبـون، وتـصب في الـبحيرة الـتي منها يغترفون!

بأي منطق وفكر وقانون تدار الأمور، وتعالج القضايا، في هـذا الوقت المتقدم من التجربة والممارسة، وفي زمـن ثـورة المعلومـات والاتصالات والفضائيات، وفي ظل هذا الاستهداف الخارجي العنيد؟

وبأي عين أو قامة، سيواجه هؤلاء الممانعون زفرات الـراغبين، وتنهيدات المحرومين، وتلويحات المنتظرين؟ تلك التي يمكن أن تـذيب الثلج الذي قد يستوطن زمناً، وتدفئ قلوب الصخور في تلك الـذرا المتعالية، لكنها تعجز عن تحريك مشاعر «القائمين عليها» أو تفكيرهم أو ضمائرهم المتجمدة!

j j j

هذا الصامت!

كانا يجلسان جوار سائق الحافلة الصغيرة، آيبين من أمسية ثقافية، يتحدثان باهتمام وجدّية، منطلقين من النصوص التي قدمت، والحوار الجادّ الذي تلا تلك القراءات. تلوّن الحديث الذي لم يخرج عن محوره الرئيس: الأدب والثقافة والقراءة والكتابة. تبادلا الآراء والأفكار، اتفقا، اختلفا، ولم تتجاوز وتيرة الحديث في كل مراحله ما هو مألوف ومقبول في حافلة مكتظة، تعبر بركاب رحلة مسائيةٍ المسافة الزمنية التي لا تتجاوز نصف الساعة بين مدينتين عريقتين. قبل انتهائها بقليل، نزل أحد المتحاورين إلى داره. سأل واحد من الراكبين من وراء السابق بترق: هل نحن في جنازة؟ لماذا لم تشغل "الراديو" أو المسجّل طوال الطريق. أجاب السائق بهدوء - على غير ما هو معتاد في الحوار بين الركاب وقائدي الحافلات - لو كنت مكاني لما فعلت. كنت أستمع إلى حديث أحبه.

التفت المحاور الباقي جواره باندهاش:

- هل أنت جادّ؟ أم تسخر منا!

- بالعكس أقول ذلك بكل جدية، كنت في غاية السعادة والانشراح. لماذا نزل صديقك؟ وماذا يعمل؟

لم يكن مهماً في نظر الراكب المثقف ما يتطلبه الرد من دقة وذكر للتفاصيل التي تخص محدثه الذي غادر، تلك التي قد لا يعرف الكثير منها، لكن المهم ما أضافه السائق الشاب باهتمام:

- أنا في شوق لمثل هذه الأحاديث التي لا تتكرر كثيراً. أحب الثقافة والمثقفين، وأحترمكم أيها الأدباء، وأحسدكم... أيضاً، وأتمنى الاقتراب منكم والعيش معكم وبينكم. لست جاهلاً، ولا أحب أن أكون بين الجاهلين الثرثارين، أو بين العاديين الذين لا همّ لهم إلا صيد الركاب، وسباقات الرعونة، ومشادّات الحماقة... والكلام عن الشرطي والمخالفة والراكب والطلب والأجرة والدّخل والقروض والأسعار... أنا في حاجة إلى كلام مثقف جدي يطوف بي في أركان عالم الثقافة والأدب، يذكّرني بأدباء وشخصيات وكتب... ربما قرأتها ذات يوم، أو سمعت عنها، أو استمعت إلى برامج إذاعية تخصها، أو برامج تلفزيونية..

أنا لست منهم، لست مثلهم. هذه هي المرة الأولى التي يحدث لي هذا منذ سنوات، وأنا أنتقل بين المدينتين مرات عديدة يومياً. للمرة الأولى تمنيت أن تطول المسافة، وتتطاول الطريق، ويستمر الحديث... وحزنت لأن رفيقك قد نزل قبل أن نصل إلى المدينة.

حين ذكر لي صاحبي هذا الذي جرى بينه وبين السائق بعـــد أن نزلت من السيارة، أحسست بسعادة لم تكن أقل من سعادة محـــدّثي، وفكرت بالجدوى التي تجعل الحماسة للعمل الثقافي مستمرة. فمن منا لا يحسّ بالإحباط حين يجد أن الجمهور الثقافي الذي يحضر نشاطاً مـــا محدوداً أو معدوداً، أو تتكرر الوجوه خلال الأمسيات في محافظـــات عديدة ومواقع متعددة!

ومن منّا لا يحس باللاجدوى من مستوى الحديث الذي يـــسفّ كثيراً في الحافلات أو السهرات أو اللقاءات العرضية أو الموعـــودة، وعلى أعلى منسوب من الشرائح الاجتماعية المقدرة! ومن مـــستوى الغناء الذي يعلو من أجهزة التلفزة أو المـــسجّلات أو المحـــلات، أو البسطات، في البيت أو الشارع، في الليل أو النهار، تـــضاف إليهـــا الأحاديث عبر الأجهزة الخلوية، تلـــك الـــتي لا تقـــلّ إســـفافاً في معظمها...

لكننا نخطئ حين نظن أن هذه الشرائح التي نلتقي هي النـــاس جميعاً، وتلك الجماعات التي تقول وتقوّم وتنشغل بأشياء أخرى هـــي الجمهور كله، ونخطئ حين نحسب أن الآخرين جميعهم غير معنيين بمـــا نفعل!

وأن "جمهورنا" الذي يحضرنا، خجلاً أو معرفة، هـــو الجمهـــور

الحقيقي والنهائي. لا شكّ في أنّ هناك جمهوراً صامتاً في مختلف المجالات: الثقافة والسياسة والرياضة... وهو كبير ومهمّ، وعرضة لأنواع المؤثرات جميعها، ويستحقّ التفكير والاهتمام والاحترام...

وجمهور الثقافة الصامت بعيد، لأنه مشغول بلقمة الخبز أو الهموم الأخرى، أو متباعد لانقطاعه عن الأماكن الثقافية، وابتعاد انشغالاته ومعارفه ومعاشريه عنها، أو مبعد لعدم الاهتمام به، أو للتقصير في دعوته، أو العجز عن اجتذابه، لأنّ الجو العام القريب منه عملياً وإعلامياً ليس جواً ثقافياً، والمسموعات والمتابعات ليست ثقافية، بل ربما تكون عكس الاتجاه، أو لا تميل إلى الاتجاه الصحيح أو تشجع عليه في أقل تقدير... هذا ليس تسويغاً لهم تقاعسهم عن السعي واستسلامهم لواقع ربما لا يحبونه، أو تسويغاً لنا تقصيرنا تجاه البحث عنهم واستدراجهم... لكنه ربما كان تحفيزاً لاستمرارنا في هذه الدرب غير المفروشة بالورود دائماً، رغم التجاهل والإشفاق والإنكار والتهمة... وتشجيعاً للجميع، كي يكون للثقافة نصيب في كنانالهم التي تغصّ بأسهم في اتجاهات أخرى، ربما كان بعضها مسدداً إلى الصدور. صدورنا جميعاً، وصدور حامليها أيضاً!

j j j

يحدث في الثقافة أيضاً!

... وفي الثقافة أيضاً، كما في سواها من مشارب الحياة، يحدث أن تختلف المواقف، وتتنوع ردود الأفعال، أمام الآخرين العاملين في الحقل ذاته، ولا سيما مواقف من سبق تجاه من لحق، أو مواقف من يقوّم ويقرر مؤهِّلاً للنشر في الدّور العامة والخاصة، والدوريات المتخصصة وغير المتخصصة، أو للانتساب إلى جهةٍ ما، أو للتقدم أشواطاً ودرجات... ويندرج في هذا السياق ما يعرف بـ «صراع الأجيال» و«عداوة الكار»!

والعاملون في الثقافة بشر، لكنهم ليسوا من طينة واحدة، ولا بمستوى واحد، ولا يشكلون نسخة واحدة، وليس مطلوباً ذلك أبداً، لكن المطلوب أشياء أخرى!

فمن المثقفين من يفرح لإشراقة موهبة جديدة وظهور اسم جديد؛ فتحسه مغتبطاً يشجع ويبارك ويساعد، ويتحدث عن ذلك شفاهة أو كتابة؛ وقد يصيح: وجدتها... وجدتها! كأن ما وجده يخصه تماماً، وهو يخصه حقاً، لأنه كسبٌ للثقافة والمعرفة والإنسانية بشكل

عام. وآخرون يتعاملون بحيادية أو بآلية، بلا انفعالات ظاهرة مباشرة واضحة، كأي فعل في أي مجال إجرائي مكتبي خدمي أو استهلاكي، وقد يكون من أسباب ذلك كثرة ما مرّ من محاولات وتجارب، أو الزهد في ما صارت إليه الأمور، أو تصير، وهو موقف سلبي بشكل عام، لكن سلبيته تزداد في المجال الثقافي. إذ يجعل الحراك يفتقد الروح الضرورية لاستمرار الجذوة، واتقاد الحيوية، ولهفة التلويحات المغرية في المنافذ والمعابر والآفاق... فيما ينتاب العديدين حسد وغيرة وقلق وخوف من أي قادم جديد، قد يؤثر على أسمائهم أو مواقعهم! ومنهم من يحاول تعليل ذلك وتسويغه، بأنه يدفع هذا «المندفع» إلى التروي والتمكن أكثر من أدواته، لتأكيد حضوره بالاغتناء والمثابرة والجدّ، غير عابئ بما سيكون لهذا الموقف من جرائر أقلها الإحباط والأسى؛ بل هذا ما يراد ربما، تمادياً في التشفي من تلك الموهبة، وقطع الطريق أمامها، والحدّ من تفكير صاحبها في متابعة المغامرة... وقد يتساءل أحدهم: من هو فلان؟ أو يوغل في التجاهل: لم أسمع بهذا الاسم! من دون النظر إلى أهمية ما يقدمه...

ويتضخم الموقف، حين يكون لكتابة هذا الوافد الجديد، ما يجعلها تختلف عما هو مألوف أو ناجز، أو له رأي ما في أدب منشور أو قضية أدبية مطروحة... قد يغاير المتداول أو يتمايز عنه!

ولا تقل خطورة المسألة. بل تتفاقم، حين يتساهل هذا المسؤول

الثقافي أو ذاك مع أصحاب النتاجات المتوسطة أو الرديئة، لأن ما يقدمونه لا يعكر بُحيرته، ولا يخيف، ولا يؤثر على مستقبله. وقد يتهاون أكثر مع أصحاب الدعم مختلف الوسائط والنوعية والمصادر والقيمة، من دون أن يهتزّ له جفن، وهو يعرّض الثقافة قيمة ومعرفة وذائقة وتاريخاً ورصيداً وجرياناً ومستقبلاً... للإهانة والاغتصاب، ويساهم في ذلك بشكل مباشر!

ولا يختلف حجم المشكلة الكارثي، إذا ما كان مضمون هذا النتاج الواهن مقبولاً أو مطلوباً، أو كان احتفاء أو تمجيداً أو تخليداً أو رثاء، أو مواكبة لحال أو ظرف... ولا يسوغ تواجده أو كثافته.

وقد ترى أسماء تتكرر وتتوزع المنابر، وتتكرس بتسارع غريب، فيما الكثير من أصحاب المواهب الحقيقية ينتظرون حضوراً أخلاقياً لمسؤول أو مقرر، أو يترقّبون مسابقة جدية موضوعية الاهتمام والتحكيم، يأتي إعلانها من أي جهة وأي مسافة. وكم من الأدباء جاءت جوازات عبورهم الثقافي من خارج الحدود أو داخلها، بعد فوز متكرر لنصوص قدموها إلى مسابقات عنيت بالقيمة والإبداع، ولم تلتفت إلى ما عدا ذلك، مع الإشارة إلى أنه لا يمكن أن يقال إن جميع المسابقات تتسم بالأخلاقية المطلوبة...

وهناك حال لا تقل كارثية عن الإساءة المقصودة والمَنْحِ غير

المستحق، هي الرفض غير المتعمد، ولأسباب متعددة أيضاً؛ منها أن يكون صاحب المسؤولية عاجزاً عن اتخاذ القرار الصحيح، لأنه فاقد للخبرة اللازمة أو للمعرفة المطلوبة في هذا الجانب أو ذاك. وقد يكون ذلك لأن تركيبته النفسية والثقافية لا تسمح بهذا النوع من التجديد أو التجريب، أو الأداء بأسلوب مغاير، وهو لا يملك المرونة الكافية ليتقبل انزياحاً عما يحب، أو يفضل، أو اعتاد عليه... ناهيك عما يمكن أن يفارق قناعاته أو ثوابته أو مفهوماته! وليس لديه من الأريحية ما يسمح بعبور عمل إشكالي، قد يتجاوز الحدود التي هي أصلاً غير محددة تماماً، كما أن الوقت المكتظ لا يمكّنه من التأني في اتخاذ القرار لمراجعة أخرى وأخرى...

ومن الكتّاب والمبدعين والمترجمين من يقوم بقراءة أسطر أولى، أو صفحات أولى أو أخيرة، أو يكتفي بنظرة عجلى وتصفّح متسارع، ليكتب تقريراً فضفاضاً معللاً بالرفض أو بالقبول، هذا إذا لم يكتف بقراءة الاسم، ومن ثم يدبّج تقريره المنمق!

ولا يتوقف الأمر على المسؤولين من المثقفين؛ بل ينسحب على كثير من المثقفين وآرائهم وأقوالهم وأدائهم الحياتي، مع اختلاف حضورهم في المشهد الثقافي. إنهم يعتادون على إطلاق الأحكام العامة بحق زملائهم كبروا أم صغروا، مبتدئين أم عابرين، محاولين أو مشهورين.. وفيها من المبالغات في الإطراء والإيغال في التسفيه، ما

يجعل المستمع يتعجب، ويتساءل إن كان ما يجري في سوق عكاظ أم في سوق لبيع المهربات والمسروقات!

وتغيب الموضوعية أو تكاد، حتى في الرأي الثقافي. فهذا متميـز لأنه قبل لي نصاً، وذاك موهوب لأنه لم يدقق في مادتي، بل لم يقرأهـا، ولم يتركها تنتظر دورها بل دفعها إلى في النشر، والآخر مبدع لأنـه يقدمني إلى ذاك المنبر أو هذا. إضافة إلى ما يحدث من تغـيير في الآراء حيال الموضوع الواحد، أو المادة عينـها، أو الـشخص نفـسه، وفي أوقات قد لا تتباعد كثيراً، ويمكن أن يرد في الكلام المواجه ما يخالف ذاك الذي يقال في الغياب، ويُستفاض في القول آناء بعض المناسـبات بما لا يعرف عن قائله من مواقف تجاه صاحب المناسـبة، إذا لم يكـن معروفاً عنه رأي معاكس، أو قول أقل حماسة بكثير!

نعم؛ المثقفون بشر، ولديهم، كما لسواهم، مشاعر وأحاسـيس وقدرات ورغبات ونزوات... تقل أو تكثر، تنوس أو تفيض، تظهـر أو تبقى كامنة... لا شك في ذلـك. مـع أن عملـهم وإبـداعاتهم وأدوارهم ونظرات الآخرين إليهم، يُفترض أن يجعلهم كـل ذلـك، وغيره كثير، من الصفوة مثالية وزهداً ورحابة وإشعاعاً، أو على الأقل يقربهم من ذلك. لكن، يبدو أننا نحتاج دوماً إلى التذكير بأهمية الجدية في تناول القضايا الثقافية، والموضوعية في اتخاذ القرارات، والأخلاقية في التعامل مع المواد والنشاطات والأسماء، وألاّ يختلط الأمر، أو يُخلط

بين العلاقات الشخصية العاطفية والمنفعية، وبين ما ينتجه الأشخاص، ويقدمونه، سواء أكانوا في أعلى مستوى أو مهمة، أو لم يكونوا.

ومن دون أن ننسى أننا جميعاً مسؤولون عن ذلك دواماً أو تغييراً، تكريساً أو مساءلة... وأن هناك أهمية لا تحدّ للانسجام بين القول والفعل، واتخاذ القرارات والأحكام التي يمكن أن لا نخجل منها، ويمكن أن ندافع عنها بجرأة وعلنية، من دون أن نتخفى وراء غياب الاسم أو غياب الرقيب أو غياب الضمير... في الثقافة أيضاً، ويا له من غياب!

j j j

ألا ليت الشباب...

ليس اعترافاً بالكِبَرِ عِتيّاً، أو النضوج افتخاراً، ولا بالعجز احتضاراً. هذا الذي لا يقوى على الاعتراف به إلاّ ذو بأس شديد...

لكن، ربما هو شعور بالقنوط، من حالٍ لا تشجع، وواقع لايبعث على الرضا والانشراح كثيراً.

أو ربما هو إحساسٌ بالخيبة، التي لا أتمنى أن تنال من أحد.

كتبتُ، أكثر من مرة، محتجاً على تسمية "أدب الشباب." وعلى تعامل بعض "الكبار" معه، (وكنت، وما أزال شاباً - أديباً - في نظري على الأقل). ذلك التعامل الذي أحسست حينئذ أنه يأتي من منطق الطوابق ذات المناسيب مختلفة الارتفاع، الذي لا يرى في الآخرين الشباب من الأدباء سوى أدوار سفلى، وربما أقبية!

وحين أنظر الآن، أرى من موقع متوسط الارتفاع، أن بعض النظرات تتناولك شزراً، وبعض الآراء تتقاذفك، وبعض الأفكار تدخل في دوائر لا تنتهي، من التجاهل والتناسي والاحتساب...

فأن تكون كاتباً، لا بأس، ربما! تنشر هنا وهناك، وفي أوقات

متباعدة، وفي زوايا مختلفة. لكن أن تصبح مهماً، فهو أمر يحتاج إلى مراقبة وحذر. وأن يتناول كتابتك بعض المعجبين، المحبين، المتابعين، فهذا يجب أن يكون بمقدار.. فمن تظن نفسك في النهاية؟ وكيف تفكر؟ هل تحس أن بإمكانك أن تجترح المعجزات الإبداعية؟ أن تكون بارعاً إلى الحد الذي يجعلك قادراً على اختراق حواجز الاعتراف، أو نوبات الحساسية، أو عتبات الشهرة؟ وهل يعفيك أنك لا تنافس أحداً بذاته؟ ولا تخاصم كاتباً بعينه؟ ولا مبدعاً أو أديباً، حتى لو كان ممن يشرفون على أكثر من صفحة ثقافية، أو صحيفة، أو قسم ثقافي بأكمله!

لا... أنت تحس بأنك تنافس ذاتك، إبداعك ذاته. تشعر أن عليك أن تتجاوز نفسك باطراد، وما عليك تجاه الآخرين إلا حسن السلوك والكلام والاحترام... مع ذلك، هذا لا يسوّغ ظهورك في أكثر من دورية، وكتابتك في أكثر من موضوع، ومشاركتك بأكثر من نص أو جنس أو مقابلة...! لا... عليك أن تعلم، أنك مراقب بحذر، وملاحق بإحساس طاغ من النرجسة، أو الأثرة، أو الإفلاس، أو العيون التي تضيق من كل شرارة، أو ومضة، حتى لو كانت بشارة مطر عميم!

لو كنت شاباً، لما كان في الأمر مشكلة. لكن المشكلة الآن أنك كبرت، لأنك كبرت، ربما كان ذلك بسرعة. وإن كنت ترى أنك

تأخرت، وأن العمر مهما تطاول، يبقى أقصر مما يسمح بإنجازه من سلسلة المشاريع التي تضغط في رأسك المهموم والمؤرق.

كبرتَ، فصرت خطراً على الآخرين: خطراً أخضر، أو أبيض، أو أزرق... إنه خطر من أي نوع قد يكون في ملفات الإبداع، وسجلات الاتهام...

صحيح. كانت تقتطع من بعض نصوصك عبارة هنا أو جملة هناك، تُشعر بالأستذة اللازمة للإشراف على أدب الشباب، ولكن كان المجال مفتوحاً، من دون خوف منك أو عليك؛ بل ربما هو الإحساس لدى من يقدمونك، أو يفسحون لك الزوايا، بأنهم يقومون بفعل جميل، وهو كذلك، يعود بالرضا الذاتي، حتى لو كان غروراً، والأدبي ولو كان مِنّة، والإعلامي، حتى لو عُدَّ بطاقة اعتماد لرعاية المواهب الشابة في الإبداع أو سواه، وفي أكثر من موقع!

وليس المقصود من هذا الكلام، البتّة، التدخل في أسلوب عمل أحد، أو الاعتراض على ذائقة أحد، أو الانتقاص من جهد مبدول، أو التشويش على حال أدبية عامة، مع العلم أن كثيرين يقومون بهذا، من داخل الوسط الأدبي أو خارجه، لأغراض شتّى، ليست في مجملها نزيهة. ولكنني أقول ما أقول، من باب الحرص على أن يتم التعامل مع النص، لا مع صاحبه، وأن يكون التقويم على أساس الإبداع، لا على

الموضوع، وأن يتخذ الموقف بناء على الجهد والحرص والجدية، لا على مبدأ الحكّ المتبادل، أو الإغماض المتناغم، أو الرؤيا بمرج عيون! أو مبدأ الهجوم المشترك، أو الدفاع المشترك، من دون أن تكون المعركة نبيلة، أو الغاية خالصة لوجه الحق، أو القضية تستحق!

آنئذٍ، وفي أجواء كهذه، وفي حال استمرار حالة كهذه، يصبح الخوض في مضمار الأدب محفوفاً بالتجاهل على أقل تقدير، والخطو قلقاً، والمفاوز غاصة بالأشواك، والاندفاعة مهددة بالتثبيط، والمتابعة تحتاج إلى قدر كبير من همة الشباب، ومغامراتهم، وجرأتهم، وحماستهم، إلى راعين يسمحون بالظهور، ولو من باب الأستذة أو المِنّة أو الغرور...

وهذا ما يدعونا إلى دعاءٍ، كنت أحس موعده بعيداً.. لكنني، ربما أخطأت في الحساب، وها أنا بانقباض شديدٍ أقول: ألا ليت الشباب...!

j j j

المبدعون

ليس غريباً أن يمتاز المبدعون عموماً، والأدباء منهم خصوصاً، بحساسية مرهفة تجاه الخارج طبيعةً وأشياء وكائنات. وأكثر ما تظهر هذه الحساسية من أبناء جنسهم /البشر/، نتيجة العلاقات التي لا بد ستقوم مع القريبين أو المقرّبين أو الجوار أو الزملاء في أماكن العمل، سواء أكان يتعلق هذا العمل بالإبداع، أو أنه من نوعٍ آخر. وبمعنى أوسع يشمل العلاقات بين المبدعين والمتلّقين قريبين كانوا أو بعيدين، مواجهةً أو عبر وسيلة اتصال ما.

ولا تكاد تخلو هذه العلاقات من توترات وانقطاعات وانفعالات... كما في كل علاقات أبناء البشر، بوصفها قد تكون أكثر تواتراً أو قابلية له، إذا كان الأدباء أطرافاً فيها.

ولا شك في أن بعض العلاقات، حتى بين المبدعين أنفسهم، لا تسلم من هذه الحالات، بل ربما يزيد منها ويُحميها أن الجانبين مستعدان بطبيعة تكوينهما للتجاذب والتنافر!

ولكن الأمر الذي يجب أن لا يكون، هو أن تظهر هذه

الحساسيات على الملأ، وأن تأخذ طابع المرافعات المحبوكة والمنسوجة، بحيث تدين الآخر إدانة كاملة، وتصل إلى حدّ عدّ ذاك الآخر يستحق عقوبة الإلغاء! ومثل هذه المرافعات - كما في كل المرافعات الأخرى وربما أكثر - تفتح لها وسائل الإعلام المجال واسعاً، لأنها مثيرة ومرغوبة، وتستقطب عدداً كبيراً من «المتفرجين».

ولا شك في أن هذا لا ينطبق على حالات الحوار الهادئ الجدي الهادف إلى البحث عن الحقيقة التي يدّعي كل طرف أنها غايته، وهي منظورة وظاهرة ومعروفة ومؤكدة، وأنها رهن قناعاته وأفكاره وحده!

ليس هذا فحسب، بل إن السبيل الذي يسلكه هو الوحيد، ولاطريق غيرها، ولا مسوّغ لكل المحاولات الأخرى.

ويغيب عن المتشادّين أن الحقيقة واحدة، لكن لا يملكها واحد فقط، والطرق متعددة، وأساسها المشترك هو الجدّية والنيّة الخالصة والصدق مع النفس والاستماع إلى الرأي الآخر، الذي قد يفيد، وإن لم يكن ملائماً أو منسجماً مع رأي المستمع وأفكاره.

هناك مسؤولية كبيرة تقع على المبدعين أنفسهم، على الرغم من حالهم المستنفرة لالتقاط الذبذبات والإشارات والرموز التي تنطلق مع الوقائع والتخيّلات، من الماديات والماورائيات... وعليهم أن يسيطروا قدر الإمكان على انفعالاتهم الطافحة، تلك التي يفرح لها الآخرون،

ويستغلونها للنيل من أصحابها والموجّهة إليهم، وحتى إلى جنس المبدعين والإبداع بكامله... والمسؤولية الكبيرة أيضاً تقع على وسائل الإعلام المختلفة، التي يطيب لها أحياناً أن تبالغ في تسليط الضوء على القضية /المشكلة، وإيراد ردود الأفعال المثيرة مضخمة ومُبَهَّرة.

والأمر الآخر الذي قد تلجأ إليه وسائل الإعلام، هو أن تُظهر المبدعين في المسلسلات والبرامج ذوي أشكال مشوّهة وأفعال غير متوازنة، حتى ليكاد ينطبع في ذهن المتلقي وذاكرته، أن المبدع إنسان غير سوي، وبالتالي من المسوّغ أن لا يكون الأسوياء مبدعين، ومن الطبيعي أن لا تؤخذ أقوال المبدعين وأفكارهم ونصوصهم على محمل الجد والاهتمام والتقدير.

ومن المعتاد أن يُصوّرَ المبدع - على الشاشة خصوصاً - إنساناً نزقاً متهوراً فوضوياً غير لبق، وأن يظهر بمنظر غريب: طول شعر الرأس وغرابة التسريحة، وشكل شعر الذقن من دون تشذيب، ولباس غير لائق، وحركات وتصرفات غير منضبطة؛ ويكون حديثه موزعاً ومشتتاً ومتفلسفاً، أو غير واقعي أو منطقي.

إن المبدعين نسغ هذه الحياة، وأفكارهم وإبداعاتهم نورها ويخضورها، وليس في صالح أحد حتى الذين لا يهتمون، أو لا يظهرون اهتمامهم، ويغارون ويحسدون... وليس في صالح المستقبل

والحاضر، أن يظهر هؤلاء المبدعون على النـــاس، بكـــل شـــرائحهم ومستوياهم، في حالات تدعو إلى الـــسخرية والاشمئـــزاز والـــشفقة، ويرثى لحالهم في أحسن الأحوال، ويُدعى لهم بالسلامة والشفاء.

فالمبدعون أسوياء جداً، ومهمون وضروريون ولا بديل عنـــهم، بل أكثر من ذلك، إنهم يحتاجون أكثر من سواهم إلى قدر أكبر مـــن الحرية، وتجاوز المعوقات التي تفرضها حـــتى العلاقـــات الاجتماعيـــة العادية. ناهيك عن العلاقات المدبجة والمحسوبة مـــصلحياً ووجاهيـــاً واقتصادياً.

وأعود لأؤكد مسؤولية المبدعين أنفسهم عن المظهر الذي يجب أن يظهروا به، ليُقنعوا بما يريدون إيـــصاله إلى الآخـــرين وإقنـــاعهم به،خاصةً أن كثيراً من النصوص التي يظهر فيها المبدعون في حـــالاهم تلك، يكتبها مبدعون أيضاً ولكن "أسوياء" جداً.

j j j

القناعة والإبداع

ليس للإبداع عمر. تلك حقيقة من الحقائق القليلة التي يمكـــن الاقتناع بها، في هذا الجانب المميز من الحياة.

فقد اشتهر رامبو بقصائده التي كتبها ولّما يبلغ العـــشرين مـــن عمره، وسمي النابغة كذلك لإبداعه الذي ظهرت ملامحه بعد أن تجاوز الأربعين، والروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف بدأ بكتابة الرواية في الثامنة والثلاثين.. والقائمة تطول.

فالموهبة اكتناز كامن ينتظر برهة أو ومضة كي ينبثق. وقد ينتظر تفهم إلحاحه من المبدع ذاته الذي قد لا يـــستجيب أول الأمـــر، أو لا ينتبه إلى ما لديه من إمكانيات. هذا مـــن حيـــث الاندفاعـــة، أو الإشراق الأولي، أما من حيث نضوب هـــذا المـــسيل الإبـــداعي، أو شحّه، فلا عمر له أيضاً. فقد توقف رامبو عن كتابة الشعر مبكراً، في حين لم يتوقف الروائي العربي الكبير نجيـــب محفـــوظ حـــتى وفاتـــه. وكثيرون من الأدباء من يكتبون في أيامهم الأخيرة أيضاً ومـــن بـــين براثن المرض، والمسرحي العربي سعد الله ونوس خير الشواهد...

وهذا لا يعني بحال من الأحوال تقويماً إبداعياً لتلك النصوص، التي ستتعرض كسواها - وربما أكثر - للدراسة والنقد. ولا يستطيع الكثيرون الإحساس بالشح في أية مرحلة عمرية، ناهيك عن المراحل المتأخرة. وليس من السهولة الاعتراف بهذا السبات الإبداعي، الذي يصل إلى مستوى الموات. ويحاول الكثيرون المكابرة بالكتابة المستمرة مخافة الارتهان إليه. وقد لا يجرؤ المتابعون له على الإفصاح عنه، خوفاً على الكاتب أحياناً، وخوفاً منه أو من سمعته، أو تزلفاً أحياناً أخرى، ولاسيما إذا كانت له مواقع مؤثرة.

ما من شك في أن مبدعين عديدين خفّ وهج إبداعهم، وشحبت أصداء كتاباتهم، وهم مصرون على الكتابة، ربما لضرورة الإحساس بالحضور الحي في يوميات القراء، وأمام أعينهم، وعلى مسامعهم، لاعتقادهم أن في غيابهم عن الواجهة المتحركة للإعلام والنشاط الثقافي غياباً من الذاكرة أيضاً... ومن المتابعين من يقول إن جمهورنا نسّاء، أو بكلمة أقسى: غير وفي. إذ سرعان ما ينسى أو يتناسى من كان شاغله ومنشغلاً به، إذا ما غاب حضوره عن مسرح الأحداث والأقوال. وهذا ما يعنيه القول المعروف: "بعيد عن العين بعيد عن القلب."

الكلام يحتمل الكثير من المناقشة في غير مجال.

وقد يكون إصرار بعض المبدعين على الكتابة توهماً ذاتياً أيضاً، أو استمراراً في السعي للتوازن الذي تهدف إليه الكتابة الإبداعية أصلاً، من حيث هي بحث عن الخلود، بشكل أو آخر، وبصرف النظر عن نتائجه أو جدواه، حتى لو كان ما يقدمه صاحبه يؤثر سلباً على مقامه الإبداعي الذي شيّد على مر السنين.

أمر آخر يمكن الكلام فيه لدى المبدعين. فكثيرون من أصحاب الروائع لم يكونوا متأكدين من روعة ما يفعلون، أو منتظرين تلك الأصداء وذاك الاهتمام. ومنهم من مات مهملاً جائعاً، وكسب العديدون من بعده، من جراء إبداعه ذاته، الثروة والجاه، بما يقترب من الخيال.

إذا كان الحال كذلك، فلماذا نفترض أن عليهم أن يقدروا ذلك أو يعرفوه في المراحل العمرية المتعاقبة، فنطلب منهم التوقف عن الإنتاج! صحيح أن الخبرة والتجربة والحياة زادت من معارفهم، وأغنت مكنوناتهم. ولكن الصحيح أيضاً أن الحركة الإبداعية ليست مستقيمة أو وحيدة الاتجاه، منجزة المواصفات والشروط، منبتّة عن الأحوال والظروف والأجواء التي تعيش في أركانها أو تحلّق في فضاءاتها.. وإن عدّ الأمر مسألة فيها الكثير من المكابرة؛ ألهذا إذاً يغيّر بعض المبدعين مواقفهم، ويتراجعون حتى عما كان مثار إعجاب واهتمام، واتباع أو تقليد؟

ليس هذا فحسب، بل إن منهم من يعلن أنه في حلٍّ مما «اقترف» فكره أو «إبداعه»، ويجهر ندمه، وتوبته!

العمر له حق، ربما. للنهاية رهبة ومراجعة، يمكن. للحياة المتجددة قوانينها المغايرة، مقبول... مع كل هذا، أليس من حق الشخص حتى لو كان مبدعاً؛ بل لأنه مبدع، أن يكون كما يرى هو نفسه، لا كما يراه الناس ويريدونه!

لاشك في أن هذا صحيح، ولكن الصحيح أيضاً، أن إبداع الكائن لن يعود ملكه بعد أن يخرج منه، وإذا كان لم يفرض على المتلقين اقتناعهم به، وكان ذلك برغبتهم، فليس من حقه أن يسحب منهم تلك القناعة، أو يلومهم على تمسكهم بها. وقد لا يغير اعترافه بها أو التنكر إليها من الأمر شيئاً، وقد لا يكون من السهل تقبل المتلقين لنتاجه الأخير، إذا ما كان مغايراً.

ولكن... أليست فضيلة أن يعرف المبدع أن ما لديه الآن لا يليق بسمعته، وبما كان لديه، وبما احترمه الناس على أساسه؟ هل يمكن أن نسمي ذلك قناعة المبدع أو قناعة الإبداع؟ وهل هذا التعبير منطقي أو ممكن؟

وفي معرض هذا الكلام، أورد رأياً أو موقفاً أعلنه الروائي العربي الكبير الطيب صالح على شاشة إحدى المحطات الفضائية، حين

رد على سؤال مستضيفه المستغرب توقف الروائي المستضاف عن كتابة الرواية لعقدين من الزمن. وهو صاحب السمعة الأدبية الإبداعية الطيبة بعد «موسم الهجرة إلى الشمال» و«بندر شاه» وسواهما.

أجاب الروائي الكبير:

«هناك كلام جميل كثير يكتبه الآخرون، يمكن للمرء أن يقضي الوقت الطويل في الاستمتاع بقراءته...»

جواب إبداعي حقاً؛ فمن النادر أن تقرأ أو تسمع رأياً بهذه الأريحية، وهذا الإخلاص للإبداع والاحترام للمبدعين الآخرين.

وأضاف:

«إن العيش في أجواء الكتابة والتفكير فيها حرق للأعصاب والعمر، وفي الحياة أشياء أخرى تستحق الاهتمام وجديرة أن تعاش...»

وهذا - في رأيي - تعبير أدبي عن حال من الإحساس بأن ما كان لديه في تلك الفترة قد يقصر عما قدمه قبل ذلك. لأن المرء المبدع لا يستطيع أن يتجاهل نداء الإبداع أو وسواسه طويلاً. وفي كلامه أيضاً تعبير عن مرارة اللحظات أو حرقة الأوقات التي يعيشها المبدع المنشغل بالإبداع. ولكن هل بإمكان المبدع الإقلاع عن ذلك بقرار، أو بمحض إرادته إذا كان لديه ما يحرقه؟

ثم أضاف الطيب صالح:

«إن هناك كتابات من جنس آخـــر، كالنـــصوص النقديـــة أو المقالات يمكن أن ينشغل الكاتب بها...»

هل هذا تسويغ آخر، أو اعتراف آخر؟

إنها آراء لم تطرح جزافاً، وتستحق الاحترام والمناقـــشة، كمـــا استحقتها أعمال الكاتب الروائي الكبير الراحل، وتستحقها مدى من السنين...

j j j

حَرْحَرَة...

حين يخرج إلى النور، يكاد يتلفّتُ القلب وتنهض الروح وتضحك العيون. فقد صار حقيقة بعد أن كان حلماً، وصار واقعاً بعد أن كان خيالاً، وصار ضوءاً وحرارة، بعد أن كان ومضاً غامضاً وشرارة خاطفة.

ولكن قبل أن تتمادى في الفرح، أو تبالغ في الضحك، وأنت تقلبه بين يديك، أو تنظر إليه مكدساً في المطبعة، أو معلناً عند في جريدة، تطوف أمامك صور عابسة، وملامح منقبضة، وذكريات ليست بعيدة، وأصداء تجارب سابقة، تستعيد ردود أفعال لا تتأخر كثيراً:

- من لديه الوقت ليقرأ؟
- من لديه الراحة ليتابع ما يكتب؟
- من لديه القدرة على شراء الكتاب؟
- ما الفائدة من هذا الذي يُكتب أو يُقرأ؟

إن هذه الأقوال تكاد تكون قاسماً مشتركاً لدى الكثيرين، الذين لا يريدون - أو لا يستطيعون - التواصل مع هذا الجانب الهام من

الحياة. ولن تحتاج إلى البحث كثيراً عن انشغالاتهم واهتماماتهم وأوقات فراغهم. فأنت تعرفهم، أو أكثرهم، وهم يعرفون أن قدرتك على الشراء لا تختلف عن قدرات معظمهم، وهي تقل كثيراً عن قدرات بعضهم، وأحوالك من أحوالهم. مع ذلك يمكنك أن تؤمن الوقت اللازم والإمكانية المطلوبة والانشغال الضروري تفكيراً وإعداداً ومراجعة وطباعة... وهم لا يستطيعون تأمين قدرة أقل على المتابعة...

أما الراحة، راحة البال على الخصوص، فهي متوفرة عندك؛ فأنت لا همّ ولا غمّ ولا تعب ولا إرهاق ولا منغصات ولا متطلبات ولا أعباء لديك!

فأنت تعيش في برجٍ عاجي، كل حاجاتك مؤمّنة، وكل رغباتك محققة، ولديك في كل لحظة من يقول لك «شبّيك لبّيك...»

وأنت لست حساساً، ولا تشغلك قضايا الظلم والقهر والتسلط والتطاول والاستباحة والنفي والاستيطان، ولا يهمك ميزان العدل المهتز، ولا قوانين القويّ النزيهة (!)، وأنّات المسحوقين تحت العجلات والصفقات والنوايا المتربصة والملامح المتلمظة...

لاشك في أن هناك من المستجدات في حياتنا اليومية ما يشجع على قلة الإقبال على القراءة، بدءاً من التلفزيون بالأقنية التي تفرّخ، وصولاً إلى هذا السباق المصلحي المجنون. وصحيح أن هذا الأمر لم تخلُ منه مرحلة زمنية، ولكن يبدو الآن شرهاً ومحموماً وذئبياً أكثر. إن

في هذا الأمر مسوّغاً، لو أردنا استخدامه، لعدم الكتابة، أو - لكسر الدف... والكفّ عن الغناء -، فليس هناك من يقرأ، أو يهتم علـــى الأقل.... ولكن على العكس، هذا بالذات ما يجعل للكتابـــة معـــنى أكبر، ويجعل منها رسالة ضرورية، ولها مكانة أهم...

إن الكتابة الإبداعية ليست وصفة سحرية جـــاهزة، وليـــست علاجاً يؤخذ في أوقات محددة قبل الطعام أو بعد الأخبار... إنها محاولة لا تنتهي للوصول إلى التوازن - النفسي على الأقل - الذي اختـــل منذ الخطيئة الأولى. وإن كان حقاً على الكاتب أن يقدم إبداعاً، وأن يعطي هذا الموضوع ما يستحق من اهتمام وتضحية وأثرة، وهو يفعل ذلك من دون إرغام أو ترغيب أو استدراج، ومن دون نيّة أيـــضاً... فإن حقاً له أيضاً أن يرى أو يسمع أو يقرأ ردود أفعال حقيقية، تكون دليلاً على الاهتمام الجدّي بهذا النتاج المطبوع. هذا الـــذي لا يريـــد المبدع إلاّه في الحدود الدنيا، من دون أن يثير تسويغات للكـــسل أو الإحجام، أو عدم الاقتناع بهذه الطريق، أو العجز عن ذلك...

إن النتاج الإبداعي هو دخان احتراقنا... واحتراق سوانا... قد يتساءل من يراه عن أسبابه وحيثياته ومعناه... قد تحرحـــر عينـــاه أو تدمع أو تجحظ...

وفي هذا بالذات الربح كل الربح.

j j j

طباعة ونشر

يشتكي الكثيرون هذه الأيام من الازدياد المطرد في عدد المطبوعات وحجومها في مختلف ألوان الثقافة، ولاسيما الإبداعية منها. ومن هؤلاء من يرى أن في هذا الأمر تمييعاً لقضية الإبداع، وتشويهاً للذائقة، وتضييعاً للوقت والجهد في البحث عن السمين في كثير من الغث. وأسارع إلى القول إنني لست من الشاكين من ذلك، ولست من القانطين؛ بل إنني أرى أن في اهتمام الكثيرين بشؤون الكتابة وأمور الطباعة، جوانب إيجابية يجب ألا تغيب عن البال، ومن المفترض أن تشجَّع وتدعَم وتفعَّل.

فالانشغال بهذه القضايا أفضل بما لا يقاس من قتل الوقت في أمور أخرى، لا تصح مقارنتها بالكتابة أو القراءة، الجلوس في المقاهي، لعب الورق، جلسات النمّ والنقّ والتسفيه والشكوى من قلة الحيلة وانعدام الجدوى... هذا من حيث المبدأ، أما من حيث الفعل، فإن هذا الكاتب سيكون مضطراً - إذا ما أسأنا الظن بإمكانياته الإبداعية - إلى متابعة الثقافة وشجونها عن قرب، بوصفه أحد

رموزها أو المشتغلين فيها، وفي هذا فائدة مضاعفة: تربح الثقافة مهتماً جديداً، ويربح هو خبرة وآراء وأصداء، سيجد نفسه، رضي أم كره، في مواجهتها. وسيؤدي تراكمها لديه، بالضرورة، إلى تكوين رأي أو موقف أو تصور، لما يمكن أن يكون عليه الإبداع، وستخرج محاولاته الجديدة في حال أفضل، مرة إثر مرة. ولن يتوقف عند رأي مجامل من صديق، أو كلام عابر من مسؤول ثقافي، أو موقف عام من مثقف غير جاد، أو نقد متحامل من متحسس أو عاجز أو متضرر.

إن هذا الشخص/ الكاتب، سيجد نفسه شاء أم أبى في جهة الثقافة، جهة المعرفة الكفيلة بصقل إمكانياته، وتفعيل قدراته، وتنمية حس الوعي والمحاكمة والمسؤولية لديه. لاشك في أن هناك من يظل على الهامش، من دون أن يستطيع الخوض في بحر المعرفة كثيراً أو قليلاً، وسيعمد إلى البحث الدؤوب عن علاقات غير سليمة، وأساليب لا تليق، كي يؤمن الانتشار المطلوب، والتسويق المرتجى، وربما استطاع، في مرحلة ما، أن يتبوأ موقعاً مؤثراً في بعض الشؤون الثقافية، وقد يؤدي وجوده هذا إلى تكريس بعض التصرفات المَرَضية التي أوصلته، وتعويم حال غير مرغوبة. نعم، يمكن أن يحدث هذا، لكن ذلك لا يسوّغ الدعوات المحمومة إلى وقف هذا السيلان الإبداعي، بأي شكل وبأي ثمن. فمن الذي سيقرر ما يجب أن يوقف؟ وأي الألوان ستجهض، وأية أشكال سيسمح بسيادتها. إذ لا يمكن أن

تسود في الثقافة قوانين جامدة، ولا يمكن أن نعمم وصفات موحدة للإبداع، ولا تزر وازرة وزر أخرى في الإبداع أيضاً... ومن المفهوم أن الأمر ليس مفتوحاً إلى ما لا نهاية من الاحتمالات والاجتهادات. ولكن أمر ذلك رهن بالجدية والاطلاع، ورحابة الفكر، وسعة الصدر، وامتداد الأفق، والثقة بالنفس، والقدرة على الاقتناع قبل الإقناع.

إن الحرية الذاتية شرط أساسي في انطلاق الموهبة، للبحث والتقصي عن حال أكثر إمكانية للتعبير عن القلق أو الخوف أو المرارة التي يحس بها المبدع كلاً أو جزءاً. ولابد من توافر أجزاء نظيفة للبوح والتلقي، بعيداً عن الآراء الموجهة بقسطاس، أو الأفكار المحددة المبتوت في أمرها من دون رجعة. ولا بأس من المسارعة للتأكيد على أن هذه الأريحية في التعامل مع هذا الأمر، يجب أن لا تجعلنا نغض النظر عن ملاحظات لا بد من طرحها، تتعلق بأوليات ومسلمات وربما بدهيات لا يمكن القول بالتهاون بها أو امتهانها. فمن غير المعقول أن ينشر كتاب إبداعي - أو غير إبداعي - يعج بالأخطاء اللغوية، ومن غير المقبول أن تنشر نصوص مع أخطاء في تركيب الجملة، أو ركاكة في التعبير، أو ضعف باد في الصياغة. وهذا الأمر لا يتطلب من صاحبه أكثر من عرضه على عارف بأمور اللغة، إذا كان (الموهوب) غير قادر على التوصل إلى الإتقان المطلوب، وقليلون

الذين يصلون إلى ذلك للأسف، ولا يمكن أن ننتظر نصراً مؤزراً من «سعاة إلى الهيجا بغير سلاح)!»

والأمر هنا مختلف عن قراءة خاطئة لكتابة صحيحة، تلك التي يمكن التعود على تفاديها. وهي مسألة هامة أيضاً، وتسبب عائقاً بين المتلقي والمؤدي، وتشويشاً على النص المؤدى، وتقليلاً من تأثيره في المتلقين، مهما كان جيداً. مع ذلك، فإنها أقل مثلبة من كتابة خاطئة وطباعة مغلوطة، تلك التي لا يمكن غفرانها.

أما مسألة الجودة أو عدمها، فتلك مسؤولية المهتمين في شؤون الثقافة، المهمومين بها، وعليهم أن يقولوا آراءهم الموضوعية في كل نص، من دون أن تلقى الأحكام التقويمية بالجملة على الناس كلهم، بما لا يفيد، بل بالعكس إن هذا ما يساعد على إطلاق حال إفسادية في ميدان الثقافة. هذا الميدان الذي يجب أن يكون بعيداً عنها البعد كله، بل إن على العاملين فيه مسؤولية محاربتها في الميادين الأخرى كلها. كما أن الكاتب، حين يحس أن كتابه سيقع في يد من يدرسه دراسة جادة، ويقول رأيه فيه من دون محاباة أو تغييب، سيجد أن من واجبه، حفاظاً على الأدبية المسؤولة أن يفكر جيداً قبل أن يقدم على النشر، وقد يستشير عدداً من المهتمين، ويستمع إلى تقاطعات آرائهم، ليأخذ بما يحس أنه الأسلم، من دون أن يؤخذ هو أيضاً برد الفعل، فيبادر إلى الاتهامات الجمعية للمثقفين كلهم الذين لا يقدرون الإبداع، وربما شمل هجومه الثقافة كلها.

الأمر مهم، والغاية هنا لا تسوغ الوسيلة، بل إن هـــذه الغايـــة الجلّى تتطلب استعداداً جيداً وتمثلاً حقيقياً للحالة المتبناة واحتراقاً بنار الرغبة والفعل والصدى، ولا بد من كثير من الجدية والاهتمام بمـــا لا جدال في أهميته، ولا مناص من إتقانه، ولا بديل عن صـــحيحه، لمـــن يريد لمطبوعه أن يرفع رأسه، ولإبداعه المنـــشور أن يخلـــده بـــصورة ناصعة، من دون أن يضطر إلى الدفاع عنه في كل موقع وأي حين، بلا وسائل دفاع مجدية أو ثقة أو أمل في النجاح!

j j j

تَقْدِمات...

من الأمور التي لم أستطع استساغتها في عالم الأدب، تلك التقدمات التي تتصدر الكتب الإبداعية، شعراً أو قصة، أو تذيّلها... ولم أجد إلى الآن مسوّغاً منطقياً لذلك، مهما اختلفت الحجج وتعددت التفسيرات... فمنهم من يقول إنها مفاتيح للدخول إلى عالم النص أو النصوص. لكننا نجدها لدى نصوص مشرعة، لا تحتاج إلى مفاتيح أو أبواب... ومنهم من يدعي أنها مشاركة وجدانية بين أديب خطا خطوات أكثر عمقاً واتساعاً، وبين آخر مايزال في خطواته الأولى. وفي هذا القول ما لا يرتضيه الكثيرون من تراتبية وتصنيف. وأحسب أن قضية السبق الأدبي كماً أو نوعاً ليست محسومة زمنياً.

وإذا كان لا بد من تقويم ظاهرة التقديم هذه، فإنها في رأيي لا تخرج عن مفهوم الدعاية أو الإعلان، وفيها يتكئ صاحب الكتاب على اسم آخر معروف في عالم الأدب، عسى أن يسهل له العبور إلى أذهان القراء، وإن لم يطل المكوث فيها! أو لنقل هو ورقة عبور لأيدي القراء. مع أن هذا الأمر سلاح ذو حدين، وهذا ما قد يجهله البعض.

ولا ننسى أن المُقَدِّمَ يستطيب فعل الأستذة، ودور المعلّمية، فيكتب ما شاء له ذلك، ينظّر، ويقولب، ويقول كلاماً عاماً قد لا يكون له علاقة بالكتاب الذي يكتب فيه أو عنه، وقد يصلح لأي كتاب في هذا النوع الأدبي... أو أنه يعتمد على مسموعات أو على قراءة نص واحد أو أكثر قليلاً، ليقول كلاماً يتناقض - ربما - مع مضمون الكتاب وفلسفة الكاتب - إن وجدت - وأسلوبه،ثم يلجأ إلى التسويغ، إن سألته عما فعل، فيقول: أحرجني فلان،ورجاني أن أقدم له، أو لقريبه أو لصاحبه،أو صاحبته، ولم يكن لدي الوقت الكافي، فأنا مرتبط بأعمال كثيرة، وكان الكتاب في المطبعة ينتظر التجميع... فكتبت ما كتبت!

طبعاً يقول هذا الكلام من كان متواضعاً بين المقدّمين، ورضي أن تناقشه في الأمر. أما الذي يوغل بعيداً في الفوقية، ويصدق نفسه أو يصدقه بعض المقربين، فلا يرضى لكلامه تعقيباً، ويعلل أمرك بالغيرة والحسد والتمني...

كنت وما أزال أقول إن النص، والنص وحده، هو الذي يمكن أن يفرض نفسه على قرائه، أو بتعبير أدق، هو الذي يمكن أن يأخذ القارئ من نفسه، ليدوم ذلك وفق ما تقتضيه جودة النص أو خصوصيته وخصوصية القارئ. وإن أي كلام عن النص أو فيه، قبل قراءته، يمكن أن يشوش رأيك كقارئ حياله، وبالتالي يؤثر على تأثرك، وقد يستفزك - لا شعورياً أو شعورياً - لالتقاط المثالب، لأن المقدمة تحدثت عن الإيجابيات أو بالغت فيها... أو أن المقدّم كان فلاناً بالذات... وربما تبحث عن مسوغات كتابته - تقديمه - لهذا الكاتب

بعينه، فيشغلك ذلك عن الكتاب... نعم. هناك كتب كثيرة تصدر، وهناك كتاب عديدون، ويتكاثرون، كما يشتكي الكثيرون، ولست واحداً منهم. فأنا أحيي الكتّاب وأفرح لاختيارهم أو لدخولهم هذا المعترك الجميل، أقول، مع هذه الكثرة لا بأس - بل من الواجب - أن تتم دراسات نقدية، تتناول هذا النتاج، أو ذاك، بالعرض والتقويم والتبويب والاستنتاج. دراسات نقدية جادة وجريئة يقوم بها فريق أو أشخاص، بحيث تغطي الجوانب المختلفة التي تقف وراء أو إلى جانب النتاج، من دون أن يطغى الرأي الفردي الذي لا يكاد يخلو من محاباة أو افتراء تجاه كاتب أو أخر.

وفي ظل غياب مثل هذه الدراسات، نطالع بين حين وآخر كتابات عن كتب إبداعية، أو ما يدرج تحت هذه التسمية. هذه الكتابات لا تقدم في معظمها ما يفيد، ولا ترضي غير المكتوب عنه أو خصومه، وفق دوافع الكتابة!

واستقراباً لذلك، وربما استباقاً، تُستهل بعض هذه الكتب بمقدمات تريد إرغامك، منذ الصفحة الأولى، على قبول صاحب المجموعة كاتباً مبدعاً موهوباً، وإلا لما كتب عنه فلان، ورضي أن يترافق اسمه مع مؤلفه... وإذا كنت ترى غير ذلك، فعليك اختبار ذائقتك ومراجعة حساباتك، ومعلوماتك، ورفع يديك استسلاماً!

j j j

ثقافة الألقاب!

ما من شك في أن لقب أديب يحمل في طياته وأصدائه قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير. وهو في الوقت نفسه، وبالقدر ذاته أو أكثر، يفرض على صاحبه مسؤولية إثبات حقه في هذا اللقب، والمحافظة عليه، ناهيك عن تأكيده وتجذيره. وما من شك في أن حمل هذا اللقب لا يكفي وحده كي يستحق صاحبه الاهتمام والاحترام المقدرين؛ حيث إن هناك جهات إعلامية وغير إعلامية تمارس الكثير من السخاء في إطلاق الألقاب.

وليت الأمر يتوقف على ذلك، بل إن كلمات أديب، شاعر، قاص، روائي، مسرحي... قد لا تكفي، ولا تملأ العين ربما، بل تستتبع بصفات ومواصفات عديدة للتدليل على أهمية صاحبها، أو تمييزه من الذين يحملون مثل هذه الألقاب. فتطوف عبارات: شاعر كبير وقاص عجيب وروائي مدهش، ومسرحي فذ...

وبصرف النظر عن مدى مصداقية هذه الصفات، ودرجة انطباقها على الموصوف، ومع توهم حسن النية والقصد، فإن التمييز

لا يكون بمثل ذلك. فوجود شاعر كبير، يقتضي وجود شاعر صغير، أو شاعر كبير جداً، وشاعر أكبر، وأكبر بقليل أو كثير، حتى نصل إلى لا تعيين!

كما أن درجة الكبر تقتضي التعريف. فهل هي تعني العمر الشخصي أو العمر الأدبي أو عدد المؤلفات، أو عدد الكتب، أو الصفحات، أو الأماسي، أو مرات التكريم، أو المقالات المكتوبة عنه، أو الدراسات التي امتدحت نصوصه، أو الصحف التي يكتب فيها، أو المجلات التي خصصت له أبواباً، والجوائز التي حصل عليها، أو هي في الطريق إليه؟ هل تشمل المقابلات الماراتونية التي أفردت له، أو نوع الورق الذي يطبع عليه إبداعه، والتجليد والتقديم، والجهة، والجهات التي ستقتني، وربما تعمم نتاجه؟

وقد تتضمن أيضاً الدعوات التي تلقاها، وتلك التي رفضها، والسبب في ذلك، والمواقف التي تبناها، والقضايا التي دافع عنها، والمهرجانات التي أقيمت على شرفه، والشوارع أو الحارات التي سميت أو ستسمى باسمه!

إن حديثنا من داخل البئر التي نعرف الكثير عنها وعن غطائها، ونستطيع أن نقول إن الكثير من الألقاب المهداة ليست في محلها، وكثيراً من الصفات التي تستتبع ليست بمستحقة. أقول هذا وأنا أعلم

أن مثل هذا الكلام لا يفيد، ولا يغير من الواقع شيئاً، تماماً كما الكثير من تلك الألقاب التي تمنح بلا طائل.

وفي تقديري، إن كلمة شاعر وحدها تكفي، ومثلها قاص أو روائي، أو مسرحي...

ويكون «التكبير» أو التكريم بدراسة نص للأديب يظهر فيها مدى استحقاق صاحب النص للقبه، ومقدار تمثله له، وإلى أي حد استطاع المثابرة على ذلك، وأين كبا أو أجاد.. هذا مع علمنا بأن الكثير من هذه الدراسات يفتقد الموضوعية؛ فهي مسبقة التصميم والتنفيذ والتوجيه والتقويم...

مع ذلك، فإن تناول نص ما بشكل علني، سواء أكان عن طريق إعلام مرئي أو مسموع أو مقروء، أو عبر أي منبر ثقافي، يجعل المسألة تأخذ طابع الجدية والمسؤولية، ليس من جهة الذي يقدم الدراسة فحسب، بل من جهة كل المتلقين، ولاسيما أولئك الذين ينظرون إلى النص نظرة مختلفة.

فالنص معلن، والدراسة عنه معلنة أيضاً. ويمكن لأي مهتم مقاربة المادة، سواء أكانت هذه المقاربة متفقة أم معارضة. وفي هذه الحركة بركة التخويض في مجرى الثقافة الذي يجب ألا يسكن، كيلا يأسن. ويزيد من معنى هذه المشاركة، أن من النادر أن تتفق الآراء

جميعها بالتفاصيل ذاتها، أو زوايا الرؤية عينها. وبالتالي، كلما ازداد عدد المساهمين في ذلك، اتسعت مساحة الرؤية، واغتنت عملية المتابعة، سواء للكاتب صاحب النص أو للذين أدلوا بدلائهم فيه.

وفي هذا تحفيز للآخرين على الدخول في المجال بخطو فاعل، لا عن طريق كلام نظري إعلاني مسطح.

إن لقب شاعر مهم، ومثله، روائي كبير... هو فضفاض على كثيرين، ومنهم من يعلم ذلك. ربما كان من بين هؤلاء من يطلبون صفات أخرى، أو يفرحون بها، وينتظرونها، ويبحثون عن طرق تدعيمها، سواء بتقديم أسمائهم أو تأخيرها في الأماسي الأدبية، أو بطلباتهم ورغباتهم في تحديد مواعيد نشاطاتهم، وعدد الجمهور والوسائل الإعلامية المطلوبة و«الحضور المهم»!

وقديماً كانوا يولمون لظهور شاعر، أما الآن فقد يولم لإظهار شاعر! وليس ضرورياً أن تكون الوليمة أكلاً وشرباً. فهناك مظاهر كثيرة أخرى تؤدي الغرض ذاته، لعل الألقاب ملامح منها.

إن لقب أديب ليس موسمياً، ولا يضيق بذاته عن كبر أحد، ولا يحتاج إلى صفات تغنيه، لأن في وسعه الامتداد والتوسع بقدر ما يكتنز مرتديه بنصوص قيمة، وبقدر ما يجهد للفت الانتباه وفرض تقديره واحترامه، وسعي لإبقائه نظيفاً بهياً معبراً عن ذاته باقتناع وإقناع.

ولن يكبر الأديب بمترادفات تضاف إلى لقبه، بل بالاهتمام الجدي بنتاجه، الذي سيتطور ليصبح موضع احترام، إذا ما كانت الموهبة حاضرة والمثابرة حيوية والاندفاعة حقيقية.

وفي قول مأثور ما معناه: عجبت لامرئ يفرح إذا ما مدح بما ليس فيه!

j j j

محررون ثقافيون!

كنت، وما أزال، أعتقد أن الثقافة توازن، أو هجس به، أو سعي إليه، أو وعد به. وكنت، وما أزال، أؤمن أن خير من يمكن أن يتحمل مسؤولية ثقافية، هم المثقفون الواعون لهذه المسؤولية مبادئ والتزامات وغايات..

وبصرف النظر عن نسبة المثقفين المكلّفين بمهام ثقافية، من بين المسؤولين الثقافيين في مختلف المواقع، تلك التي لا أظن أنها تسرّ، فإن الكثير مما نرى، ونلمس، من أداء بعض ممن يقومون بأعمال ثقافية، وممن يحسبون على المثقفين، لا يسر أيضاً. وهذا ما يجعل الخيبة تتضاعف، لأن أعداء الثقافة المتربصين سيربحون مرات: خسارة عمل ثقافي حقيقي، أو تخريب ثقافي، وشهادة بأن أداء المثقفين أنفسهم ليس أفضل من أداء سواهم، حتى في المجال الثقافي. هذا ناهيك عن الخسارات في الأصداء والزمن والتجربة والحضور...

وإذا كان التحرير الثقافي ليس وظيفة مهنية فحسب، بل يضاف إليها واجب أخلاقي ثقافي، واستعداد ذاتي لخدمة الثقافة، ينبعان من هاجس ثقافي، أو رؤيا ثقافية، أو مشروع ثقافي...

فإن ما يثير الخيبة بعد الاستغراب والدهشة، أداء بعض المحررين الثقافيين في الدوريات الثقافية، والصفحات الثقافية في الدوريات الأخرى... هذا الأداء الذي يكمن خلفه شتى الأمراض التي تبتلى بها الوظائف الأخرى، إضافة إلى فيروسات من مشاعر الحسد والغيرة والانتقام، ناهيك عن الإهمال المتعمد، والتجاهل المقصود، والانتقائية التي تشوّه الواقع الثقافي الذي يحتاج دائماً إلى من يلونه بألوانه الحقيقية، من دون تزييف وبلا تزيين مجاني.

وإذا كان هذا الأمر يمكن أن تراه عبر الإعلام الثقافي بشكل عام، فإن ما يحزّ في النفس أكثر ظلم ذوي القربى...

وإذا كانت الحال - والحقّ يقال - ليست جديدة أو مستجدّة، فلا مسوّغ لاستمرارها، أو إغفال الحديث عنها، خوفاً من رد انتقامي محتمل، أو تغافلاً عن أذى لا تخفى ملامحه وأصداؤه، أو تجاوزاً لممارسات تتكرر إهمالاً وانتقائية وتصيّداً، أو اصطباراً على آلام ومرارات، تصيب الحال الثقافية التي نزعم أنها في حراك ونشاط وتفاعل، نتمنى أن تتنامى باطّراد، ونطمح إلى حال أكثر غنى ونضوجاً، ونعمل على ذلك، بالتعاون مع المخلصين لها والمؤمنين بها، من دون بهرجة أو ادعاء.

ونتساءل: كيف لمحرر «ثقافي» أن يغضّ الطرف عن الجمهور الذي يكاد يملأ القاعة التي تتسع للمئات، من دون أن يكون بينهم مسؤول رسمي واحد، ويفتّش عن السبب الذي يكمن وراء جنس المسابقة الأدبية التي يحتفى بالفائزين فيها؟

وكيف لمحرر (ثقافي) أن يختار اسماً من بين أسماء ثلاثة لأدباء يشتركون جميعاً في أمسية أدبية، فيعلن عنه أو عنها مع صورة، ومن دون ذكر الآخرين، أو ذكر الجهة الداعية؟

وكيف لمحرر (ثقافي) أن يتجاهل مرة أخرى الجمهور الثقافي المميز، الذي جاء ليحضر أمسية أدبية يشارك فيها المحرر نفسه، ولا يستحق الأمر منه إشارة أو ذكراً؟

وكيف لمحرر «ثقافي» أن يتناول مؤسسات ثقافية بكاملها من دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عن نشاطاتها، إن كان لا يعرفها، أو التبصّر بها وهو يعرفها؟ مع العلم أن هناك من هو على استعداد لتقبل أية ملاحظات ومناقشة أية انتقادات تنطلق من النشاط نفسه، أو المادة المقدمة ذاتها، لا من خلفيات ومواقف تجاه المؤسسات أو الأشخاص المشتغلين فيها.

وكيف لمحرر «ثقافي» أن يحرص في اختيار من يريد مقابلتهم أو

الحديث عنهم، كي يميّزهم عن الجو الثقافي الذي يفتح آفاقه لمشاركة الجميع فيه، من دون أية حساسية أو خصومة أو موقف سلبي!

وكيف لمحرر «ثقافي» أن يغيّب أسماء عن النشر في «بيدره الثقافي»، ويكرس أسماء أخرى، لغايات ومصالح معروفة؟

ليس المطلوب تمييزاً مبالغاً به عن الآخرين، ولا امتداحاً مجانياً، ولا شهادة حسن سلوك، ولكننا نتمنى إنصافاً يستحقه الجمهور الطيب، وتلك الأفئدة المفعمة بالودّ والرغبة في التواصل الإنساني، الذي تشكل الثقافة حامله الأجلّ.

وبعد هذا وذاك، يتحدث بعض المحررين الثقافيين عن بؤس الواقع الثقافي، وقتامة الحال الثقافية، أتراهم ينظرون عبر هاجسهم الثقافي أو رؤاهم الثقافية، أو نواياهم؟

لقاءات ثقافية!

- أريد أن أجري معك مقابلة!
- هل تعرفني؟
- سمعت باسمك!
- هل قرأت شيئاً من كتاباتي؟
- لا. لا... أقصد ربما قرأت زاوية لك هنا أو هناك!

سنعمل المقابلة لصحيفة محلية، ثم أدبلجها وأفلفلها بمعرفتي، وأرسلها إلى صحيفة عربية معروفة. وأريد منك أن تدلني على بعض كتاب هذه المحافظة المشهورين قاصين أو شعراء أو روائيين... وبعض الفنانين التشكيليين الذين يبيضون الوجه. وبعض الباحثين في الفكر والأدب والفن...

هكذا... يهبط - أو تهبط - عليك فجأة، مهتماً مستعجلاً مشغولاً، مراسلاً لصحف عديدة ومجلات متنوعة ومحطات...

وأكثر من ذلك، يقعد ليكتب لك الأسئلة رشاً، كما يكتب

طبيب مزدحمة عيادته بالمرضى وصفة تشفي العظام وهي رميم:

- ما رأيك بالكتابة؟ وما هي إصداراتك؟

- ما موقفك من الشعر الجديد والقديم؟ والقصة القصيرة والقصيرة جداً؟

- ما رأيك في الواقع الثقافي المحلي والعربي والدولي؟

- ما رأيك في أزمة الشعر العربي وأزمة القصة القصيرة وأزمة الرواية العربية وأزمة النقد العربي وأزمة الفكر العربي والعقل العربي و..؟

- بمن تأثرت؟ وبمن تؤثر وستؤثر؟

- ما رأيك في الحداثة وما بعد الحداثة وما بعد بعد الحداثة؟

- أين تجد نفسك بالنسبة إلى المدرسة الواقعية والرمزية والواقعية السحرية والسحرية الجديدة و....

- ما رأيك في العولمة؟! وفي جائزة نوبل وكونكور..؟

- ما هي الجوائز التي حصلت عليها؟ أو التي رشحت لنيلها؟ وما رأيك في الجوائز؟

- ما هي إصداراتك؟ وما هي الدراسات التي كتبت عن إبداعك؟

- ما رأيك في المؤسسات الثقافية، والقائمين على الأقسام الثقافية؟

- ما هي مشاريعك الجديدة والمنظورة؟ كيف تتعامل مع دور النشر؟

لا تنسَ الصورة: لو كانت في وضعية من يبدع، الحالم أو الذي يكتب، لكان ذلك أفضل.

وتذهب لتنشغل أياماً بالإجابات على هذه الأسئلة العامة العائمة، وينشغل آخرون ممن تكرم - أو تكرمت - عليهم بأسئلة مماثلة من ذهب - أو ذهبت - لينشغل بمبدعين آخرين!

لاشك في أن لمثل هذا السلوك شبيهاً في مختلف جوانب الفعل والنشاط.

لكن هذا الذي يخلط بين العمل والاسترزاق والتسوّق، الارتجال والفوضى والاستسهال والمجانية، واللعب على رغبة الشخص في الظهور الإعلامي، لا يمكن أن يستساغ، أو يكون مقبولاً، ولاسيما في المجال الثقافي والإبداعي. وذلك لأن أي سعي يجب أن يكون له ما يسوّغه، وما يقنع. فهل يكفي أن تظهر صورة المبدع وإجاباته على تلك الأسئلة التي يمكن أن يسألها أي مستجد على الساح الثقافية أو متطفل، لنقول إن فعلاً ثقافياً قد تم، ومقابلة ثقافية قد نفذت؟

قد يكون مسوّغ الملتقي إنجاز عمل «ثقافي»، أو استكتاباً ينال عليه مكافأة أو مرتباً... لكن الأمر في النهاية فعلٌ مجاني، أو ذو مردود محدود.

فلو قرئ عمل لذلك الأديب أو أعمال، وتمحورت الأسئلة حوله مؤيدة أو ناقدة أو متسائلة، ألن يكون أجدى؟

ونتساءل أحياناً، وبعد كثير من التجاهل أو الاستغفال لأديب أو أدباء من محافظة ما، أو من جنس أدبي معين: كيف يتقاطر الصحفيون الثقافيون أو يتداخلوا، وقد يتنافسون أيضاً على لمّ أسماء المبدعين من هذا الحيز أو ذاك، واصطيادهم قبل الآخرين! وهل يحتاج الأمر إلى قرار من مسؤول في الصحيفة أو توجيه من آخر؟ أسئلة تبقى للأسف من دون أجوبة مقنعة. ولعل في إثارتها بعض الإشارة إلى ضرورة الحد من مسوّغات طرحها، سواء من خلال أولئك الحاملين أسئلة يوزعونها بالجملة والمفرق من دون تمييز، أو من خلال المسؤولين عن الصفحات الثقافية أو الدوريات الثقافية، الذين يفترض أن يكونوا أكثر جدية في توجيه مثل هذه المقابلات أو تبنّيها... وصولاً إلى المبدعين أنفسهم، الذين يفترض أن يكون لديهم احترام لذواتهم أكبر، وأن يترفعوا عن تسويقهم بالمجان. أو اغتنام رغبتهم أو انجذابهم إلى واجهة إعلامية أو منبر إعلامي مطروح.

ولا يمكن أن نغفل عن أن عدداً غير قليل من المبدعين الذين يستحقون الظهور الإعلامي في هذه المحافظة أو تلك، في هذه المنطقة أو تلك، لا يتسنى لهم ذلك، لأسباب كثيرة ليس المجال هنا لذكرها. ولا بد من أن يؤخذ هذا الأمر بعناية لدى المسؤولين الإعلاميين الثقافيين حين تهيئة البرامج الثقافية، أو الخطط الثقافية. وهذا ما يبعد المتطفلين أو «تجار الشنطة الثقافية» عن الساح الإبداعية التي تستحق منّا العناية والاهتمام والجدية. كل في نطاق مسؤوليته.

j j j

أنا من معي؟ أنا مع من؟

من المفارقات التي تحدث أحياناً في أوساطنا الثقافية، ما يدعو إلى أكثر من تساؤل، وأكثر من وقفة، أهمها مع النفس. وهو يدخل من جديد في محاولة إثارة حس المسؤولية الذاتية، أكثر من إلقاء تبعات القضايا الثقافية المتعثرة أو المعلقة على الآخرين. وهو لا يندرج تحت ما يسمى بـ "نشر الغسيل" الذي يمكن أن يستفيد منه أعداء الثقافة، وهم كثر، بقدر ما يسلط الضوء على ما يمكن التخلص منه من شوائب لتغدو وجوهنا أكثر بياضاً، ويصبح حضورنا أكثر إقناعاً.

حين يحضر مشارك في أمسية، أو محاضر فيها، ويجد عدداً لا يرضيه من القادمين للاستماع، يمتعض، ويتهم - ربما - الجهة صاحبة الدعوة بالتقصير في الإعلام، أو التبليغ، فلو حدث ذلك فإن «جمهوره» كان سيملأ المكان على اتساعه!

وينسى صاحبنا، أو يتناسى، أن حضوره مثل هذه الأمسيات، أو الندوات، يكاد يكون معدوماً، بحجج معروفة سلفاً: لم أسمع، كنت مسافراً، كنت مشغولاً بضيوف مهمين، كان لدي نشاط في مكان آخر... أو حتى من دون حجج.

ولا يستذكر أن يسأل المؤسسة الثقافية هـذه أو تلـك عـن نشاطاتها القادمة، أو مشاريعها القائمة، تعبيراً عن اهتمامـه. لكنـه لا ينسى ولا يتردد أن يحتج بعتب وغضب إذا لم يدرج اسمه في إطـار أية نشاطات، وفي أية مناسبة، أو موقع!

دعونا نتساءل: إذا ما حضر الأدباء والمثقفـون المحاضـرون أو المنتدون أو المشاركون عادة في الأمسيات الثقافية، النـشاطات الـتي تقام في حيز قريب من مواقعهم بتواتر مقبول، هل كنا نشتكي من قلة الحضور؟

أما إذا ما كان الآخرون لا يستحقون أن نحضر لهم، أو لـيس لدينا الوقت لمشاركتهم ومناقشتهم، فمن أين سيأتي الجمهور الثقـافي المهتم والمتابع؟

وهل هناك جمهور اختصاصه التلقي؟ ومطلوب منه دائماً أن يملأ الدروب والقاعات في انتظارنا؟ ونحن مختـصون بتقـديم الجرعـات العلاجية، والفتاوى الترياقية، من دون أن يكون لنا دور آخر؟

وإذا لم نناقش الآخرين في ما يقدمون حـين نحـضر لهـم، أو يحاورونا حين نقدم ما لدينا، فكيف ستتشذب الأفكـار، وتـصحح المفاهيم؟ إلا إذا كان ما يملكه الواحد منا حقاً كله، لا يأتيه الباطل من أي اتجاه... وهو خاتمة العلم والمعرفة والبحوث والإبداع!

ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد؛ إذ إن بعض المشاركين - وبعد إلحاح على المشاركة وعتب على تأخرها - يحتجون على الأسماء التي قد تشاركهم النشاط ذاته، بحجة أن أصحابها دون المستوى، وأن من غير اللائق أن تبخس قاماتهم الإبداعية حقها! فمن الذي يقوّم ذاك المستوى، أو يحدده؟ ومن أين تأتي تقويماتهم تلك؟

وهل هناك رأي جازم بأدب فلان، أو ثقافة آخر؟ أليست الساح تغتني بالتنوع؟

وإذا ما كان من حقنا أن نعجب بهذه التجربة، أو هذا النص، من أين يحق لنا أن نحجب الحق عمن لا يعجبه؟ من دون أن يكون الأمر شخصياً أو سطحياً بلا مسوّغات في الحالين، ومن دون أن نغفل أن للبعض تجربته التي تتّفق الغالبية على أهميتها، وصوته الذي يصونه بالكثير من الجد والجدية. وللحق، لا يأتي الاحتجاج الذي نسوقه هنا من أمثال الواثقين أولئك.

ونعود إلى التساؤل الملح: هل يرفع من قامتي ما يقدمه زميل مشارك، إذا كان ما أقدمه هابطاً؟ وهل أحضر إلى النشاط من أجل أن أستمع إلى ردود أفعال الحاضرين على مساهمات زملائي فحسب، من دون أن يهمني ما سيقولون عني، لأني أكبر من ذلك؟ أو أن ذلك يعفيني من أن أقدم ما يقنع؟

أليس في هذا تناقض، بين اعتداد بالنفس يصل حدود الغرور، بمطالبة الجماهير أن تحضر النشاطات التي يحييها أديب، وبين مطالبته أن يشارك معه أديب «سمين»؟

ولماذا لا نفكر بطريقة أخرى؟ مع افتراض أن هناك افتراقـــاً في المستوى والتجربة والخبرة مع آخرين، لا يزالون يدبون على الطريـــق الطويلة الشاقة، أليس من حق هؤلاء أن يشاركوا، كي يـــشجَّعوا أو يستفيدوا؟

ودعونا نعترف بأن بعض ما تقدمه الأصـــوات غـــير المعروفـــة يفوق، في أحيان كثيرة، ما يقدمه أصحاب الباعات الطويلة، وهـــذا ليس أمراً غريباً، إلا لدى من لا يريد أن يعترف بأن المسار الإبـــداعي ليس منتظماً دائماً، وأن المبدع الحقيقي يخاف أو على الأقـــل ينتظـــر ردود الأفعال على أي عمل جديد، يتم تقديمه للمتلقين. ألا نتـــهامس أحياناً: لو أن فلاناً ذا القامة والتاريخ الإبداعي المشهود، يتوقف عـــن القول؟

في علم النفس الاجتماعي، وفي دراسة الشخصية ومدى الثقـــة بالنفس والاعتداد بالقدرات والإمكانيات، يبدأ الأمـــر مـــن متابعـــة الألعاب الطفولية التي ينقسم اللاعبون فيها إلى فرق، ولا بـــد مـــن التفريق بين من يسأل أنا مع من؟ والذي يقول أنا من معي؟

لعله تشبيه يغني عن كلام كثير آخر...

j j j

منبريات

للمنبر أهميته وجاذبيته وسحره...

وللمنبر أهله أيضاَ.

سواء أكان المؤدى على المنبر خطاباً، أو غناء، أو محاضرة، أو مادة أدبية إبداعية، أو مشاركة في ندوة، وسوى ذلك...

وكثيرون يتهيبون الوقوف أو الجلوس في مواجهة جمهور مهما قلّ عديده، ولاسيما حين يحدث ذلك لأول مرة.

وهناك أشخاص لا يمكنهم فعل ذلك على الإطلاق. رغم أن من بينهم أدباء معروفين، لهم كتب عديدة مطبوعة، وينشرون في الصحف آراء وإبداعات...

ومن الناس من يصعدون إلى المنبر من دون العدة المناسبة لذلك. فحسن الأداء المتمثل بالمواجهة الرصينة، والصوت المعبّر، واللغة السليمة، والتقيد بالموضوع والزمن، والمادة والجدة والجدية... كلها مهمة للعيون التي تراقب، والآذان التي تستمع، والأذهان التي تتابع

وتقارن وتقوّم، حتى لو لم يفصح أصحابها عن ذلك قولاً مباشراً. وقد يغيب البعض كرمى لعيون هذا المحاضر، أو ذاك الأديب، أو هذه الجهة أو تلك.

ومن المحاضرين من يحسب أنه مدرس صف، والجمهور تلاميذ مرحلة ابتدائية. ومنهم من يظن أنه بالغ نهاية العلم، وخاتمة المعارف، وجوهر اليقين. وآخرون يعتقدون بمنة وجودهم على الحاضرين، وعلى الجهة الداعية نفسها، وربما على العصر والزمان.

ومنهم من يعد الأمر قضاء واجب، يبغي من خلاله المكافأة المادية على قلتها، أو الحضور المزركش، أو الدعاية الإعلامية التي تسبق الموعد أو تتلوه. ويعتب أشد العتب على من يعده مقصراً في تلك الدعاية بواقع الحضور الجماهيري القليل، وحضور المسؤولين الأقل، وعدم وجود الإعلام المناسب.

ومن الجمهور من يشعرون بفضيلة حضورهم على المنبريين، وأصحاب الدعوة، ويطالب بأكثر مما يحتمله الموقف، أو يقصده الموضوع، أو تفترضه المناسبة، أو يبتغيه الداعون.

فيحاولون أيضاً فرض آرائهم وأفكارهم المحضرة مسبقاً على المنتدين، من دون أن تكون لديهم رحابة النفس وسعة الصدر لتقبل آراء مخالفة، أو مواقف مغايرة.

وقد تنسحب هذه المنة على أصحاب الدعوة أنفسهم الذين يتجاوزون مؤدي النشاط، ويتغافلون عن احترام الجمهور أيضاً، بتدابير لا تحترم ولا تقدر جهود الناس وإمكانياتهم ومشاعرهم وحضورهم. وبعيداً عن هذه المنة المتبادلة، وربما المتنافس عليها أيضاً، وبعدّ حس المشاركة الفاعلة هو الدافع للنشاطات الثقافية كلّها، والبحث عن الجدوى والقيمة والروح الثقافية هو ما يحرك ويجمع أقطاب النشاط: الداعين والمنتدين والجمهور والإعلام... فإن لكل من هذه الجهات مسؤولية تتجاوز أداء الواجب، وجدولة الإنجازات، وتنفيذ الخطط، والإحياء المناسباتي، والسمعة الإعلامية.

أما من يؤدون النشاط من على المنبر، فإن مسؤولياتهم أوفر، وواجباتهم أشد تأثيراً. وكم من المنتدين عوض تقصير الجهات الأخرى، وكم من المؤدين خرب الجهود كلها؟

فليس من المقبول، ممن سيحيي النشاط، أن يغيب أو يتأخر من دون إعلام مسبق، وفي وقت مناسب. وليس منطقياً أن يفرض دوره في الظهور، أو موقعه في الجلوس والحديث. ولا يجوز أن يخرج عما هو معلن، أو المادة المتفق على موضوعها.

وهنا لا بأس من التفريق بين نشاط ثقافي يقام بمناسبة ما، ونشاط خاص بالمناسبة، ففي الحال الثانية تكون المواد متعلقة بالمناسبة، أو

تدور حولها إضاءة أو تحليلاً أو تقويماً، مع ضرورة أن يكون التنـــاول جديداً أو مسوّغاً. ويجب أن يكون المشاركون على علم بذلك؛ أما في الحال الأولى، فإن أية مادة جيدة تكون عمـــلاً في صـــالح المناســـبة، وتكريساً لإيجابياتها.

وللجمهور على المنبر حق أن يسمع جديداً. فليس مقبـــولاً أن يدور الشاعر بقصيدة واحدة المنابر المحافظة كلها، وفي المناسبات التي تتكرر سنوياً. وليس مقبولاً من قاص أن يقرأ قصة قرأها من قبل، أو نشرت في صحيفة أو مجلة أو كتاب.

أما الحاضرون، فواجب أن يقدموا آراءهم الخاصة، أو الأفكـــار الجديدة، يفوق مسألة تقديمهم مادة مأخوذة من مراجع سهلة التناول، أو إعادة أفكار مألوفة وآراء مستهلكة، أو معلومات تجاوزها العلـــوم والأحداث.

وليس محبباً من صاحب الإبداع، أن يقدم لقـــصيدته أو قـــصته بمقدمة تطول، أو يستقطعها بشروحات، ويـــستتبعها بإيـــضاحات... ولا أن يقدم مجموعة من القصائد، أو عدداً من النصوص القصـــصية، يفوق ما يحتمله الزمن المحدد قياساً على المشاركين معـــاً في النـــشاط ذاته. وعلى المحاضر أن يبوّب ما يريد أن يقول في الزمن المحدد له، أو المتعارف عليه، ويترك الأشياء الأخرى للمناقشة.

والحق الأخير للجميع في الحوار الجاد بعد كل نشاط، علـــى ألا يقدم المحاور محاضرة أخرى، سواء أكانت معارضـــة أم متفقـــة، وأن يكون الاحترام عنوان كل كلام.

j j j

محاضرات ولكن..!

أن تقدم قصة أو قصيدة في أمسية معلنة، فهنـاك احتمـال أن تعجب أو لا تعجب، وهذا أمر متوقع ومنطقي، فالإبداع غير ملـزم، إذا ما كان إبداعاً!

لكن حين تدعى لتقديم محاضرة، أو للمشاركة في ندوة تتنـاول موضوعاً ما، فلا مسوغ لك إن لم تقدم ما يفيد ومـا يهـم، ومجـرد قبولك الدعوة، يعني أن لـديك مـا يقـال، لا تجميعـاً فحـسب، ولا تلخيصاً، بل محاكمة وتقويماً واستنتاجات ونتائج. ولـيس معـنى ذلك إطلاقاً، أن تكون النتائج مما يرضي الجميع، أو يكـون الحكـم نهائياً مبرماً لا يأتيه الباطل من تحت أو من فوق، بل إنه يعني أن لديك خطوط توجيه وتوجّه، ونقاط علاّم وإحـداثيات، يمكـن أن تأخـذ المستمع إلى المكان، أو تدله على المكان، الذي يستطيع مـن خلالـه رؤية أشياء، أو ملاحظة ملامح، لم يكن ليراها لولا أن قدمتَ إليه، أو ما كان مقتنعاً بوجودها، أو متبصراً فحواها، مستشعراً حيثياتها، لولا ما أعطيته من مفاتيح. إن كل اجتهاد ممكن، وكل رأي محتمل، وكل

قول، حقٌّ على كل مهتم، وواجب أيضاً، شرط أن يسوغ كل ذلك بمعلومات ومقدمات ومتون، تعلن أن صاحب هذا الرأي متمكن من أسبابه، ومقتنع بها وبقدرتها على تحمّل ما يؤسس عليها، وأنه مدرك لطبيعة العناصر المكونة للموضوع، متفهم لأدوارها، مستوعب لتأثيراتها المتبادلة، وتأثّراتها بما كان، وما يمكن أن يكون من فعل أو قول أو تجارب أو تكهنات، تناولت الموضوع هذا أو ذاك.

ولا أود أن يفهم من هذا الكلام، ضرورة أن يكون المحاضر دائماً عالماً أو مخترعاً أو باحثاً لا يشقّ له غبار، مع أهمية أن يكون ذلك، لو وجد، وجدواه وفوائده. ولكن المقصود من ذلك، أن لا يأتي المحاضر المسبوق بموافقته، وربما اقتراحه وإلحاحه، وبإعلان ودعاية إعلامية مهمة، ليقدم معلومات عامة ومفاهيم معممة، وأقوالاً تصح أو لا تصح، وغير مشفوعة بما يليق أو يقنع.

إننا - للأسف - نشهد الكثير من هذا، وهو ليس من دون أسباب، يتحمل مسؤوليتها بالدرجة الأولى المحاضر نفسه، وبالدرجة الثانية صاحب الدعوة.

إذ إن هناك استسهالاً - كما يبدو - في التعامل مع هذه الظاهرة، بدءاً من الرغبة التي تتولد لدى صاحب المنبر أو الدعوة التي قد لا يكون وراءها دائماً التوق إلى نشر معلومة، أو بحث قضية، أو

شرح فكرة أو أفكار غامضة أو إشكالية، بل ربما كان الأمر ينـــدرج تحت ضرورة تنفيذ خطة أو برنامج عمل، أو لفت نظر الآخـــرين - وقد يكونون مسؤولين - إلى أننا نعمل وندعو ونثقف.

ثم يأتي الإعلان الذي قد يأخذ طابعاً استعراضياً، أو طابع تأديـــة الواجب، سواء أطبعت أوراق أو بطاقات، أو نـــشرت إعلانـــات في وسائل إعلام مختلفة.

إلى أن نصل إلى المحاضرة توقيتاً ومتنـــاً، وإدارة للمناقـــشات أو الحوارات التي قد تتلو.

لن يعذر المحاضر إن لم تكن لديه المسوّغات الكافية لحـــضوره، حتى لو ادّعى، أو صرح، أنه مشغول جداً هذه الأيام، ولم يجد الوقت للاهتمام والبحث والتبويب. ولا عذر لديه إن لم يصل خلال وقـــت مقبول من دقائق المحاضرة إلى ما يريد قوله. أو ما هو مطلوب منه أو مرتجى، وفق الدعوة والإعلان عنها.

وليس مقبولاً عدّ الحاضرين مهما قل عديدهم - والكرام قليل - جهلةً أو أمّيين أو ناقصي القدرة على الاستيعاب، فهـــم، وبمجـــرد حضورهم، مطلعون أو مهتمون وربما باحثون أيضاً، ومعارضون، لهم أفكار أخرى ربما، وهذا ما يجعلهم فريقاً مهماً في إنجاح المحاضـــرة أو الندوة وإغنائها، من دون ترك الأمر لهم أو لبعـــضهم لتغـــيير دفـــة الحديث، وتشتيت الموضوع في جدالٍ أو نقاشٍ لا يفيد.

إن المحاضرة ليست درساً لتلاميذ، ولا عرضاً لأقوال، ولا دعاية مجانية لتيار أو نظرية... إنها محطة تفكّر وتبادل خـبرة أو خـبرات، وزبدة بحث واهتمام ومتابعة تنتظر ردود أفعال مفيدة.

إنها مسألة مهمة، بل هي في غاية الأهمية، إذا ما تتبعنـا حجـم الإعلانات عن المحاضرات والندوات التي تقام في مناطق ومواقع مختلفة وفي مناسبات متعددة. وإذا ما دققنا في كيفية تنفيذ مـا يقـع تحـت عناوين الإعلانات، وما يقدم خلال ذلك ومن يحضر، ومـا حجـم الفائدة والجدوى التي تستخلص.

ولا يمكن أن نغفل أيضاً أن قوة الإعـلام تـؤثر كـثيراً في أي موضوع يثار، فتهيمن معلومات وأفكار كثيرة، قد يكون مقصوداً من بعضها الإثارة أو التضليل أو التشويه.. فإذا لم يقدم المحاضر ما يتمايز عن ذلك دقة أو تفصيلاً أو تحليلاً، فلا مسوغ لحضوره. هـذا مـع الإشارة إلى أهمية الحوار الذي يجب أن يشارك فيه الحاضرون، فيغدو الحضور فاعلاً ومنشطاً... لكن الذي نراه، هو أن الحال لا تـصل إلى هذا المستوى المرضي في كثير من الأحيان. وهذا ما يجعل أمر الاهتمام بهذا الجانب الهام ملحّاً من قبل كل من لهم علاقة، داعيـاً كـان، أو حاضراً، أو محاضراً في أي جانب من جوانب الثقافة المتنوعة.

j j j

تعميم...
المشهد الثقافي نموذجاً!

يكاد التعميم أن يهيمن في جوانب حياتنا المتعددة، التي يشوبها الكثير من محاولات المناورة والمواربة، والابتعاد عن الوقوف على الحقائق والوقائع والتفاصيل.. أو ذكرها على الأقل، تجنباً لاتخاذ موقف صريح وواضح وجريء، أو تسهيلاً لاتهام أو ادعاء، أو نشر أخبار تعوزها المعلومات والدقة، وبالتالي يكون المعمّم في منأى عن المساءلة أو المسؤولية المباشرة، ويبقى الكلام غائماً، يصح، أو يستساغ، أو يجوز، أو يمكن... ولكنه يحتاج إلى تأكيد، وتدقيق، وحتى يتم ذلك يكون الخبر قد انتشر، والكلام شاع...

وإذا كان هذا الأمر مألوفاً وممكناً تصوره في الحياة العامة، فإن انتشاره في المشهد الثقافي مثير للقلق، لأن فيه الكثير من القصور في الرؤيا، والتقصير في المتابعة الجدية، والعجز عن اتخاذ المواقف الصريحة، والاستسهال في الكتابة والتقويم والنقد... ناهيك عما يسبب من تشويش في التوصيف، أو تعويم في الأحكام، أو ما يطلق من نعوت مادحة أو قادحة.

فقد تقرأ مقالاً يتحدث عن القصة القصيرة العربية أو المحلية من خلال قاص واحد، وتتابع كتابة أخرى عن الشعر العربي حديثه أو قديمه، موزونهِ وحُرِّهِ عبر الحديث عن شاعر! ويتكرر الأمر بالنسبة إلى الأجناس الأدبية الأخرى محلياً وعربياً وربما عالمياً.

ناهيك عن التفاصيل التي تحتاج إلى جهد، ومتابعة، وتقصٍّ، وهي قد تختلف من نص إلى آخر لدى الأديب نفسه. لكن المقالة/الدراسة النقدية تعمم الاستنتاجات التي يمكن أن تكون مأخوذة من نتاجٍ قريب أو معروف، وبتسرع وسطحية، وبمعلومات عادية عن الرصيد الأدبي المتعلق بهذا الجنس الأدبي أو ذاك.

فتجد عنوانات مثل: الصورة الفنية في الشعر الحديث - مجموعة الشاعر الفلاني نموذجاً! أو: لغة الخطاب القصصي في القص السوري... القاص ( ) نموذجاً!

إن المبدعين الذين يمكن أن يمثل واحد منهم جيلاً بكامله، أو يختصر جنساً أدبياً برمته... قلة أو نادرون. فكيف تصح الحال إذا ما أخذ اسم كاتب عادي "أنموذجاً"؟

والمشهد الثقافي الذي يمثله صوت واحد، أو أنموذج واحد، في أي جنس أدبي، أو فرع ثقافي، هو فقير من دون أدنى شك. وبقدر ما تتنوع الأصوات المبدعة، وتتلون، وتتباين إيقاعاتها، سواء في الجيل

الواحد، أو عبر أجيال... تغدو الحال الثقافية أكثر غنى، وحيوية، وانفتاحاً، واستعداداً لقبول أية موهبة، ومساعدتها كي تظهر، وأية محاولة للمبادرة والتجريب والتمايز، كي تأخذ فرصتها في الحضور والتعبير والممارسة الثقافية..

ومما لا شك فيه أن أصواتاً تحاول احتكار المشهد، أو يحاول آخرون تجييره لها. فتأخذ المساحات الكبيرة في مختلف وسائل الإعلام، ويصبح أي حديث يخص هذا الاسم مفتوحة أمامه المنابر، وأية كتابة عنه لا تحتاج إلى جوازات عبور، حتى إن كانت دون المستوى الفني المطلوب، فبعض أصحاب الأقلام يعرفون هذه اللعبة، فيسيرون في ركابها، فتزدحم المنافذ بترددات قد تكون ناشزة لصوت واحد، وفي هذا إساءة مضاعفة للشخصية المقصودة في الكلام والمديح، وللقراء الذين يفتقدون جدية المتابعة نتيجة سأم التكرار، أو اكتشاف اللعبة أيضاً، وإساءة أكبر للمشهد الثقافي الذي يطغى فيه لون يكاد يكون واحداً، فيصبح باهتاً، ويكاد يغص بإيقاع رتيب واحد، وتأسن سوائله، وتذبل البراعم التي لما تستطع التنفس السليم بعد، ولما تجد الفسحة التي تحتاج إليها، ولا اليد التي تمتد نحوها بحنو...

ناهيك عن وجود العديد ممن لا يجيدون القول المقنع والدراسة المفيدة، ولا يملكون إمكانية تمييز الغنى – الثقافي، الأسلوبي،

الفكري... واستيعاب التجارب الرائدة، فينساقون إلى ما هو سائد، أو ما يراد له أن يعوم، أو يعتمدون على ثقافتهم المحدودة، والمنافذ المفتوحة لهم... ولن يغير في هذي الحال تبديل في الأشخاص من موقع إلى موقع، على أهمية المبادرة الشخصية، ولا تعديل في الألوان مسبقة التصور، ولا في الهياكل المصنعة... لأن المسألة تتجاوز هذه المرئيات والمسموعات والمقروءات إلى الماورائيات. ولا أقصد هنا ما يحاك خلف الأبواب، أو يحكى في المجالس السرية، أو يتوسط من أجل إزاحة أو إبقاء أو تعيين، بل أقصد الغائبين والمغيبين الذين يملكون الهاجس الحقيقي، والنية الطيبة، والطوية الحسنة، والإمكانية، والاستعداد لتقديم المبادرات المفيدة حين يحمّلون مسؤوليات، وحتى حين لا توكل إليهم مهام، ينبغي أن يعبروا عن موقفهم بأسلوب ثقافي. ولن يفيد في ذلك توجيه النقد واسع الطيف، ولا إلقاء التهم والإدانات المعممة، ولا توسيع هامش القدح والذم، بل المفيد والضروري متابعة دقيقة لكل أمر، ودراسة جدية لكل محور أو عنصر، أو صوت فيه... والوقوف على حقيقته، وإبراز ميزاته، ومن ثم يصبح التقويم ممكناً لهذا الأمر وحده، من دون سحب النتائج على آخرين إلا بمقدار ما يرتبط أو يتوازى أو يتقاطع مع عناصره، مع إيضاح ذلك بشكل واف ومقنع.

أتراني وقعت في الفخ، فبت أحتاج إلى مخرج من بلوى التعميم، فيما عنونت وكتبت؟ ألا يحتاج الأمر إلى شواهد مما ينشر رغـــم أنـــه كثير؟

مع ذلك أعود إلى القول: ليس التعميم الثقافي ظاهرة صـــحية، ومن الأجدى معالجة أي موضوع بجدية، مع الدخول في التفاصـــيل، لا للبحث عن الشيطان فحسب، بل للبحث عن الأوجه الحسنة التي يفترض أن لا يخلو منها عمل.

j j j

حول الغموض والوضوح في الإبداع

تبدو مسألة الغموض والوضوح في الإبداع عموماً معلقة في فراغ، ولا يمكن الكلام عنها بمعزل عن المبدع والمتلقي والحركة النقدية، أو الحال الثقافية العامة.

فما هي قدرة المتلقي على المتابعة وبذل الجهد والوقت في تناول عمل إبداعي ما، تناولاً جاداً محباً؟ من البدهي أنْ ليس المتلقون جميعاً على سوية واحدة. وما يكون غامضاً لشريحة ما، قد يكون غير ذلك لشريحة أخرى. وليس من المنطقي أن يكون النص الإبداعي، كل نص إبداعي، موجهاً إلى الناس كلهم؛ وعليهم جميعاً أن يصلوا من خلاله إلى أبعد غاية، أو أن يتوصلوا إلى رؤية واحدة. وهذا لا يعني أن على المبدع - أو أن المبدع - يضع في حسبانه، في أثناء إبداعه، شريحة معينة ليقول: أنا أكتب لهؤلاء؛ أما الباقون فلا يهمونني في شيء! وهذا لا يعني أيضاً أن القضية تتعلق بالمتلقي فقط؛ فقد تكون العلة في النص الإبداعي، أو في المبدع نفسه، حيث الفكرة غائمة في رأسه، ولم

يستطع التوصل إلى طريقة مناسبة لطرحها. فليس كل نص إبـــداعي مولوداً سليماً خالياً من التشوهات والعيوب، ولكن يجب أن لا يكون هذا الأمر حجة لدى المتلقّين، الذين لا يَقْدِرون، أو لا يريـــدون، أن يتابعوا هذا الفرع من الإبداع أو سواه.

ولا أعتقد، أن مبدعاً يفرح بانغلاق نصه التام، واستعـــصائه في وجه كل المفاتيح. ولا أحسب مبدعاً يرغب بأن يكون مكـــشوفاً أو مفضوحاً أمام كل المتلقّين.

والنص الإبداعي ليس عملاً يخضع في النهاية إلى تقويم مفصلي: صح أو خطأ، وغير مطلوب منه أن يقدم معلومات أو آراء واضحة، حينئذ يتحول إلى مقالة علمية أو اجتماعية أو سياسية، كمـــا يحـــدث كثيراً في "أدب المناسبات" إن صحت التسمية.

وأهمية النص الإبداعي تنبع من الأسئلة التي يثيرهـــا: أهميتـــها وعددها، والقضايا أو الأفكار التي تتناولها. ولا تأتي - الأهمية - مـــن الإجابات التي يقدمها. وغير مطلوب منه - في رأيي أبـــداً أن يقـــدم أجوبة أو حلولاً ناجعة، بل أن يثير أسئلة، يـــؤدي الـــتفكير فيهـــا، والبحث عن إجابات عليها، إلى الوصول إلى مثل تلك الحلـــول، إن وجدت. مهمة الإبداع أن يرتقي بالمتلقي إلى مـــستوىً أرفـــع، لا أن يجامله ويبقى معه على الدرجة نفسها. هذه الدرجة الـــتي لا تتعلـــق

بالشهادة وكثرة القراءات، بل بالقدرة على المتابعة والتحليل والتمثل والمحاكمة والاستنتاج، بالقدرة على التقاط الإشـارات والإيحـاءات والخيوط التي تأخذ بأفكاره وخيالاته إلى مدى أوسع، لا ليستريح، بل لينشغل، ويفكر، وينفعل، وينتشي، ويستمتع أيـضاً ببحثـه، وربمـا باكتشافاته التي قد تتمايز عن تلك الأهداف التي رمى إليها المبـدع، وعن الاكتشافات التي قد يجدها متلقٍّ آخر من السوية ذاتها، أو مـن سوية مختلفة.

لا بد من حرية الكاتب المبدع، وترك المجال أمامه لقـول مـا يشاء، بالطريقة التي يشاء. ولكن، ليست القضية مفتوحة إلى مثل هذه الدرجة، وما يحددها ليس تفكيره بالمتلقّين، بل بنضج التجربة ذاتهـا تجربة الكاتب، ووعيه وقدرته على تمثّل الحالة وطرحها بـشكل مـا. يمكن للكاتب أن يوفق في نص، ويخفق في آخـر، ولكـن الموهبـة، والتعامل مع الحالات أو الأفكار بمرونة وثقة، والاسـتماع إلى الآراء الأخرى، يمكن أن تخلق حالة إبداعية متميزة.

وهناك حلقة مفرغة لا يكتمل القـول أو البحـث مـن دون وجودها. وهي حركة النقد، هذا النقد الذي عليـه أن يلعـب دور المنشط للعملية الإبداعية، بتسهيل فعل التلقّي، وذلك بإلقاء الـضوء على الأعمال الإبداعية، وتناولها بالدراسة والتحليل، ولو من وجهات نظر متعددة، أو حتى مختلفة. هذا الأمر يجعل الأعمـال أقـرب إلى

المتلقّين، وينمّي الحس النقدي والذائقة النقدية لدى المستقبلين، ويشجعهم على المتابعة، بعد أن يحسوا بالمتعة في البحث والاستكشاف؛ ولا بأس على النقد، بل يجب عليه - أن يشير إلى مواضع القلق أو التعثر أو الاضطراب في طريقة طرح الفكرة، ولا بد من التنويه إلى درجة الإتقان أو التكثيف أو العمق، التي توصل إليها النص..

هناك مسألة قد تصح بدرجة أو بأخرى للتشبيه على المستويات المختلفة للمتلقين. فبفرض أن البث التلفزيوني بث ملوّن، فمن كانت لديه أجهزة استقبال قديمة قبل استخدام الألوان، سيستقبل البث بالأسود والأبيض... ومن كانت أجهزته حديثة، سيستقبل البث ملوناً. والذنب هنا ليس ذنب البث الملون، بل ذنب الأجهزة التي لا تستقبل الألوان، والوسط الذي لا يشجع على وجود مثل تلك الأجهزة، ولا يعمل على تأمينها. وليس من المقبول أن نقول لا تبثّوا بالألوان، لأن أجهزة - وإن كانت كثيرة - لا تستقبل الألوان، بل نقول إن على أصحاب الأجهزة العادية أن يسعوا أكثر لاقتناء أجهزة حديثة، وأن يكون هناك من يساعدهم دائماً على الحصول عليها، ولو بعد حين.

j j j

الأداء اللغوي والإقناع

ليس الموضوع جديداً، لكن الكتابة فيه تفيد. أعني موضوع اللغة العربية، وأهمية إتقانها من قبل جميع المتعلمين، أصحاب الشهادات منهم خاصة، وفي جميع الاختصاصات. وقد نشرت وتنشر مقالات لمختصين تصب في الاتجاه ذاته، وتتميز بالمسؤولية والجدية.

لاشك في أن اللغة جزء من شخصية المواطن، ولاسيما المثقف، ولا يكتمل حضوره من دونها، مهما حاز من علوم، أو أتقن من لغات أجنبية. ولا أظن أن أهمية اللغة العربية تنحصر في فرع من فروع الدراسة من دون آخر، أو تتوقف على راغب، أو موهوب في الأدب العربي، أو مشتغل فيه، ولا أحسب أن متخصصاً في أي فرع علمي أو أدبي أو فكري، قادر على الإقناع بما لديه من أفكار، إلا إذا كان مجيداً للغة التي يتحدث بها، عارفاً طرق التعبير، وأساليب الشرح والتفسير. فإذا ما كان الجمهور المستمع أو المشاهد أو الحاضر عربياً، كيف يمكن أن يجتذب المحاضر أو المتحدث انتباه المتلقين وعقولهم وجديتهم.

كم من الحاملين أفكاراً وعلوماً ومعلومات عجزوا عن توصيلها، فخاب أملنا وأملهم، وأسفوا وأسفنا على وقت جهد ضاعا من دون فائدة مرتجاة.

كثيرون من الكبار يتحرجون من الوقوف أمام الناس والتحدث إليهم لقصور في الأداء اللغوي. وهناك من سمعنا عنهم الكثير، وعن قدراتهم ونظرياتهم ونشاطاتهم، وحين قابلناهم، واستمعنا إليهم، فترت حماستنا إلى المزيد،أم ترانا ننتظر مترجمين لهم شارحين أفكارهم، متدخلين بها، مجيّرينها وفق أهوائهم، أو قصورهم أيضاً في التعبير عن هذا الموضوع أو ذاك!

لسنا في حاجة إلى التأكيد أن هناك حملات مستمرة ومستعرة لتشويه الشخصية العربية وتقزيمها، وتكثيف عوامل النقص الذي قد نحس به، أو يستشعره الآخرون تجاهنا. وتأتي اللغة في صلب تلك المحاولات. إننا أمام حال مؤثرة وخطيرة لتشويه اللغة العربية، والتقليل من أهميتها، وأهمية إجادتها، وضرورة ذلك. سواء عن طريق البرامج التي تبث بالعامية، حتى الإخبارية منها، وصولاً إلى المسلسلات التي تتنامى عدداً وعدة في الاتجاه ذاته. ولا أظن أن في الأمر براءة، أو غفلة دائماً!

يضاف إلى ذلك، ما يُدّعى على مستويات متعددة، بأن اللغة

العربية ليست لازمة إلا للمختصين في علومها، أو لمرافعين في محاكم، أو لخطباء وصحافيين وكتاب، بل إن بعض الكتاب من يجاهر بالقول إن الأخطاء اللغوية في النص الإبداعي لا تقلل من أهميته، ولا تؤثر في إبداعه!

إن قراءة رديئة، مجرد قراءة لنص مهما كانت درجة أهميته، ستجعل منه نصاً مشوهاً، فكيف الحال إذا ما كانت الكتابة مشوهة؟ وهل على القارئ أن يصحح الكلام والمفردات قبل أن يتمثل جوهرها الإبداعي؟ وإذا كان التلقي عن طريق الاستماع، كيف يمكن أن يكون الأمر مستساغاً؟

من هنا أرى أن أمر تعليم أو تعلم اللغة العربية في مختلف الفروع والأقسام الجامعية، والمعاهد المتوسطة أو العالية، بل في كل مراحل التعليم ومواقعها، أمر بالغ الأهمية. ويفترض ألا يتحرج منه متعلم أو معلم أو مسؤول، مع ضرورة الاهتمام بمفردات المنهاج، وأوقات تقديمه اتساعاً، وتنظيماً، لا أن يكون عبئاً على الطالب والمدرس، ليغدو أبغض المقررات، أو أن يكون مدعاة لنفور الطالب أو غيابه شبه المشروع، أو المدفوع إليه.

وأستغرب ما عدّه بعضهم نصراً حين تم إلغاء تدريس اللغة العربية في الجامعات والمعاهد، إلا إذا ما كان مفترضاً أن من يصل إلى

هذه المرحلة من الدراسة لا تشوبه في العربية شائبة، أو أنـــه لم يعـــد يحتاج إليها!

ويمكنني أن أسأل بكثير من الجدية والمرارة أيضاً، سؤالاً لا يخص مواطناً من دون آخر، ولاسيما من هم في مواقع الوظيفـــة والعمـــل والمسؤولية: من منا لا يجد حرجاً حين يريد أن يعبر عن رأيه أو يشرح موقفه، أو يشارك في حوار أو نقاش أو ندوة... وهو يحس أن لديـــه نقصاً ما في اللغة العربية؟ من منا لا يتعثر ويتردد في كتابة كلمـــة في مناسبة، أو رسالة، أو استدعاء أو شكوى، أو دفاع.. وهو غير واثق من دقة ما يكتب أو صواب تعبيره، أو وضوح مقصده؟

ومن من الناس لا يشعر، حين يقوم بأداءٍ قوامـــه اللغـــة، بـــأن الآذان مشرعة لسقطاته، أو زلاته، أو هفواته... وأن هناك من يحصي ويراقب وربما يشمت!

ليس في الأمر مكابرة. فالحاجة إلى حسن الأداء اللغوي لا تنوس ولا تنتهي. ولا يجوز التهاون في أمرها ذاتياً، ناهيك عن أمر المطالبـــة بها، وتكريس السعي لتفادي النقص الذي يمكن أن يكون أساسياً من المراحل الأولى، أو ربما تفاقم نتيجة ابتعاد مقصود أو غير مقصود عن سياق اللغة.

وهذا لا يقلل بحال من الأحوال، من ضرورة العناية باللغـــات

الأخرى، والعلوم الأخرى جميعها، بل على العكس، فإن إتقان اللغة العربية سبيل إلى بلورة المعارف والعلوم إلى لغات أخرى، أو ترجمتها عن تلك اللغات، بل إن أمر الترجمة، كما يعرف الجميع، يقتضي إتقان اللغتين: اللغة المترجم منها والمترجم إليها.

وإنني لأذهب إلى أبعد من ضرورة تعلم العربية وفي المراحل كلها، فأرجو أن تتكرس حال الدورات في مختلف المواقع وجبهات العمل التي يأخذ الجانب النظري أو التعبيري حيّزاً مهماً فيها، تماماً كحال الدورات الأخرى في سياق التأهيل والتدريب الذي يُتطلب الاهتمام به على مختلف المستويات.

إن شخصاً يعرج في آرائه، صعب عليه الإقناع، والخسارة مضاعفة!

j j j

الأدب والمناسبات

تتناوب في مسيرة حياتنا المتشعبة، المناسبات الثقافية وغير الثقافية، وتتزايد، وتتزاحم الكتابات الإبداعية وغير الإبداعية، التي تتناول موضوع المناسبة أسباباً وعروضاً وآفاقاً.

وتختلف جدية هذه الكتابات وموضوعيتها ومستوياها الفنية من كاتب إلى آخر، ومن وقت إلى سواه، وقد تختلف حسب مواقع الإطلالات وألوان النوافذ.

ومن المألوف في المناسبات الطارئة أن تكثر المواد الانفعالية المتسرعة، مبالغة في الامتداح والتفاخر، أو متمادية في القدح والذم، غارقة في المشاعر والعواطف، مستغرقة في التفاصيل واللقاءات والمصادفات.

وتندفع سيالات الكلام تملأ الصفحات، وتسد المنافذ، وتصم الآذان.

وتقل الآراء الصائبة، والأفكار الواعية، والأحكام الناضجة.

وإذا كان الأمر مفهوماً في المقالات والبيانات، ومتفهَّماً في

الاستذكارات والاستعراضات والانطباعات والخواطر... فإن أمر تقبله واستساغته في النصوص الإبداعية، يظل موضع تساؤل يرسخه مرور الزمن، وأمر قبوله موضع شك، يسوّغه الخضوع اللاحق للدراسة والتقويم والتصنيف... من دون أن ننسى أن الإبداع انفعال أصيل، قد لا يخطئ أصحابَ المواهب المميزة حتى في أكثر الظروف راهنية ومرارة وقساوة، وأشد الأوقات حلكة وقتامة، وأكثر الحالات ضجيجاً وانبهاراً وارتهاناً...

ومما لا شك فيه لمتابع مهتم، أن الكثيرين من الكتاب قد يتحولون إلى باعة أو متسولين، في سوق يفترض أن يخصص للنفيس والغالي من المواقف والمكابدات والرؤى والأنفاس والزفرات.

وإذا كان من غير المعقول أن تمر المناسبة، ولاسيما إذا ما كانت أدبية وثقافية، من دون تذكير أو إحياء أو إضاءة أو تعليق... من قبل المنشغلين بالهم الثقافي، فرضَ كفايةٍ على الأقل، فإن من غير المنطقي أن تتحول المناسبة، أي مناسبة، إلى نفقٍ للتزاحم الساذج، أو ميدان للسباق المحموم، أو فضاء للهرج والمرج. وتتداخل الأصوات، وتتعالى النبرات، وتتناوح العبارات، حتى تغيب الصفات المعبرة والملامح الموحية والخصائص المميزة، وتضيع الأحداث الواقعية، وتنكفئ العواطف الصادقة، أو تتوه مع ضياع الأشعة الكاشفة، وتناثرها من على الأنياب والجبهات، وتحترق المشاعر الحقيقية مع مشاعل النصر

أو نيران الأعراس، أو تغرق في جداول الدموع، وتحاصـــر في طمـــي الأسى... وتذبل مع أول إشراقة جديدة لنهار آخر، أو إشارة حضور لمناسبة أخرى. من دون أن نتغافل عن أن المشاركين في كل عرس قد لا يختلفون كثيراً، ولا تختلف أدوارهم، ولا تتنوع حتى عبـــاراتهم... وقد يكفي تبديل اسم هنا أو ضمير هناك أو جملة هنالك... أو تغـــيير في درجة العواطف والبلاغة والتعبير، واتجاهات الريـــاح والأمـــواج، ليصبح الأمر مناسباً والواجب مقضياً، والأجر مقدراً، ليس في السماء فحسب!

والأنكى من كل ذلك، أن لا يتوقف الأمر عند حيّز المناســـبة ومواردها القريبة وأطلالها، بل تتحول كتابات المناســبات هـــذه إلى كتب وإصدارات، تضاف إلى رصيد المكتبـــات، وإنجـــازات تـــزين خلاصات أصحابها، وتؤهلهم لحضور المؤتمرات، وإقامات النـــدوات، والانتساب إلى جمعيات واتحادات وهيئات، وتحمل أعباء ومسؤوليات أخرى...

ومن الكتّاب من ينتظر المناسبة، ويتربص بذكراها، ويعد مواده التي يوزعها على الدوريات، أو يتوزع معها على المنابر. وهذا لـــيس عيباً في حد ذاته، لكن من غير المقبول أن لا تختلف السوية المعرفيـــة والفنية عن تلك المواد الإخبارية أو الاستعراضية، أو المتسرعة التي قد ترافق المناسبات المفاجئة، سطحية ومجانية، تكراراً وتجميعاً لما قيـــل في الذكريات التي مرت...

وإذا كان من تفهم لما قيل ويقال آن حدوث عارض، أو تطـور مهم، أو وفاة شخصية هامة، أو حصول على جائزة... فإنه ما مـن مسوّغ لقول ذلك في الاحتفاء بالذكرى وإحياء الذكريات، والحديث عن العواصم الثقافية التي كانت أو تكون!

والفرق كبير بين الواجـب الإعلامـي الآلي، أو الشخـصي الاجتماعي الإنساني، والهمّ الثقافي والمعرفي، الذي يَفْتـرِض احتـرام المناسبة وأصحابها بتقديم الجديد الهام، والتحليل الهادئ المعلل، الـذي يمكن أن يستغرق زمناً طويلاً، ويتطلب قراءات ولقاءات ومتابعـات وأبحاثاً تنصف المناسبة وشخوصها، وتبحث في عناصـرها وظلالهـا، وتقوّم وقائعها وأصداءها المتناهية، وتفيد القـارئ والمتـابع، وتغـني المشهد الثقافي وتفاعله، وتزيد الرصيد الأدبي والفني... ويمكن القيـام بدراسات مستفيضة لمنجز أو إسهام أو مـشروع، واختبـار تجربـة وتقويمها عبر الزمن الذي عبر، طال أم قصر، وبيان أسباب فشلها أو مقومات نجاحها...

لقد مرت الإنسانية بكوارث وتمر، وتعرض البـشر والحجـر لغزوات وعدوانات واحتلالات، وكان خذلان وخيبة وانكـسارات، ومقاومة وتضحية وانتصارات، واختلفـت الأسـلحة والـساحات، وتباينت الإمكانيات... وتحررت مجتمعات من استعمار وهيمنات.

لقد مات علماء ومبدعون، بعد ما أمضوا أعماراً مختلفة، وعاشوا ظروفاً متنوعة... وأنجزوا، اخترعوا وابتدعوا، كتبوا وقالوا ومارسوا، وحصلوا على أوسمة، وتعرض الكثير منهم للأذى المعنوي والجسدي...

وسيموت الآخرون، منهم من ما يزالون على قمة هرم العطاء والإبداع... ولا راد لقوانين الحياة والموت. ولا بأس، بل لابد من إضاءة كل ذلك والوقوف عنده، لا حين حصوله فحسب، بل في أية أوقات أخرى، ولاسيما حين تحل الذكرى ميلاداً أو غياباً أو إنجازات. وتفرد لذلك صفحات، وتخصص ملفات في دوريات أو أعداد منها، وتقام مهرجانات وندوات...

لكن الاحترام الذاتي، واحترام الآخر صاحب المناسبة والمعني بها، والمتلقي أياً كانت شريحته، وأياً كان موقفه، وأنى يكون موقعه وزمنه، يتطلبان أن تكون المادة تليق، والنتاج مقدراً قابلاً للجنى أطول زمن ممكن، لا أن تلقى المواد بلهاثها وعرجها وتملقها وتسرعها في سلة المناسبة التي قد تحتمل الكثير!

j j j

إحصاء!

تتردد في أحاديث العديد من المهتمين بالشأن الثقافي وآخـــرين، إحصائيات تتضمن «الدقائق» التي يقرؤها العربي في العـــام، وعـــدد الكتب التي تصدر في الوطن العربي، ومنها الكتب المترجمة من اللغات جميعاً.. وتقارن بأرقام مقابلة في دول أخرى مجاورة أو بعيدة، تصغر أو تكبر. ومن النافل القول إن المقارنة ليست في صالحنا، وهي لا تـــسرّ، بل إنها لتبدو مخجلة ومحبطة.

وتنقل هذه الإحصائيات في الغالب عـــن مـــصادر خارجيـــة: مؤسسات دولية وجهات أخرى.

وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن فعالية النشاط الإحصائي داخل الوطن العربي، وداخل كل قطر عربي، وعن ثقافة الرصـــد والمتابعـــة والتوثيق والمقاربة والمقارنة.

وإذا كان هذا الأمر يصحّ بشكل عام على مختلف أوجه النشاط الإنساني العربي، وله أهميته ودلائله التي يقال عنها الكثير، ويبنى عليها الكثير؛ فإنه يأخذ أهمية مضاعفة في الجانب الثقـــافي، لأن الإحـــصاء

الثقافي مؤشّر متعدد القراءات، وينفذ إلى الميادين على تنوّعها، ويعكس مختلف ألوان النشاط الحيوي.

فهل يوجد إحصاء حقيقي لقراءات مجموع الشرائح الاجتماعية في هذا القطر العربي أو ذاك؟ مدناً وأريافاً، صحارى أو مناطق زراعية، سواحل وجروداً، سهولاً وجبالاً...؟ وهل تؤخذ نماذج من هذه الشرائح على سبيل الأمثلة؟ ومن يقوم بها؟ ولصالح أية مرجعية؟ وهل هناك إحصاء ميداني لما ينشر من كتب في هذه الدولة العربية أو تلك؟ وإلى أية درجة تتقارب الأرقام في مختلف الأقطار العربية؟

وإذا كانت معرفة ما تصدره الجهات العامة سنوياً ممكنة، رغم بعض التفاوت بين تاريخي الموافقة على الطباعة والإصدار لدى بعضها. فهل من الممكن متابعة ما تصدره الجهات الأخرى من دور نشر ومطابع وأفراد... بعد أن صارت أمور الطباعة ميسّرة؟

وهل يمكن الوقوف على الأرقام الحقيقية للإصدارات؟ وهل هناك من يُسأل أو يَسأل؟ سواء أكان مؤسسة أم فرداً؟

علماً أن بعض المنشورات يحمل أسماء دور نشر غير معروفة، وأخرى غير محلية. كما أن كتباً تصدَّر من دون أيّ إشارة إلى الناشر!

وهل من الممكن الاستفادة من رصد موجودات السوق وحركته؟ وهل توجد دراسة لمستويات هذه الحركة؟

وإذا كان عدد النسخ المطبوعة من إصدارات كثيرة لا يتجاوز بضع مئات أو ألفاً في أحسن الأحوال، فكيف سيتحرّك الكتاب؟ وإلى من يصل؟ ومن يستطيع متابعته؟ وهل سيكون له أصداء تدلّ عليه؟ وما المدى الذي ستصل إليه؟

وإذا كان الكلام هذا يجوز على الكتب المطبوعة بوجه عام، فهو يصح أكثر على الكتب المترجمة. فالجهات التي تعنى بالترجمة على نحو منفصل قليلة، وأقلّ منها مشاريع الترجمة المتكاملة التي يمكن متابعتها، إذا كانت موجودة، وتتناثر الكتب المترجمة عبر مختلف المطابع والناشرين، مما يجعل البحث عنها عصياً، إذا ما أخذنا في الحساب من جديد قلة الكتب المطبوعة، والجهد الفردي في الطباعة، وقلة الحركة في السوق.

من دون أن نغفل وجود مترجمين أكفياء، منهم من وجد طريقاً لطباعة بعض كتبه المترجمة، ولاسيما تلك الكتب التي لها صدى إعلامي آني، في الوقت الذي ينتظر فيه آخرون من يطبع لهم، أو ينتظرون ما يصلهم من كتب ليترجموها. والطريق طويلة، والنتاج ليس على القدر المأمول.

ليس القصد من هذا الكلام التشكيك في ما يرد من أرقام، وليس من المتوقع أن تتغير نتيجة المقارنة، لأن الفروقات كبيرة والفجوة هائلة.

ولكن يظل التساؤل مشروعاً حول كيفية الوصـــول إلى هـــذه الأرقام، ومن الذي يقوم بها ويتبناها! وهذا يفرض البحث الحثيث عن دورنا وخبراتنا وإنجازاتنا في هذا الميدان محلياً وعربياً. ماذا ننتظر؟ وما الذي يلزم؟

إن الجهد في هذا المجال، عدا عن كونه مشكوراً ومطلوباً، فهـــو هام وضروري، ويفترض أن يكون مشروعاً ثقافياً حقيقياً دائماً، تقوم به جهة أو جهات ثقافية أو اختصاصية في مجال الإحـــصاء، أو عـــبر تعاون أكثر من جهة وفي أكثر من حيّز. ومن الهـــام والـــضروري أن تعرض النتائج على الملأ، وتتم مناقشتها ودراستها، وتدور حـــوارات حول ما تبيّنه من وقائع أقرب إلى الواقع أو الحقيقة. إنها مهمة ثقافيـــة وبالتالي وطنية وقومية بامتياز. ويمكن عندئذٍ أن نقارن ما خلـــصنا إلى استنتاجه بما لدى الآخرين من أرقام وبيانات... من دون أن ننتظـــر معرفة أرقامنا وإحصائياتنا وأحوالنا من الجهات الأخرى.

j j j

نوافــذ

للوجع ملامحه، وللفرح معالمه، وبين الوجع والفــرح فــصول وأمداء وتضاريس من الأحاسيس والمشاعر، تختلف أساليب التعــبير عنها، كما تتعدد وسائله.

ولعل في المشاركة في تفهم العناصر المسببة، والعواطف الناتجــة، والمسارات، والحيثيات، والتفاعل معهــا، وتمثّلــها، مــا يُــساهم في التخفيف من حدة الألم أو الإفاضة في عوالم الغبطة، ولو بعد حين.

وحين يكون المتلقي قريباً يــرى المظــاهر والآثــار، ويــسمع الأصوات أو الأصداء، ويرغب في التشارك مع وتائر ما يجري، يمكن أن يبادر إلى سلوك من شأنه أن يقدم فيه رصيداً مهمــاً في أيّ مــن الحالين، إلا إذا كانَ بخيلاً أو لئيماً أو عاجزاً أو شحيح الإنسانية!

وحين لا تكون المشاركة ممكنة في الحيّز القريب، لا بــد مــن طريقة تنقل تلك الحالات إلى متلقٍ مهتم بعيد مكاناً أو زماناً...

ولا شك في أن هناك وسائل أكثر حداثة، وربما كانت أوضــح، وأقوى تأثيراً، كالصورة المباشرة أو المسجلة المؤجلة، وهــي قــد لا تحتاج إلى وسيط يشرح أو يوضح...

غير أن اللغة هي إحدى أهم الوسائل، أقدمها وأبقاها.

لكنها تحتاج إلى من يوردها مورد الفهم والتعبير الدقيق والعميق، وكلما كانت الترجمة قادرة على إيصال الحال بصدق، كان التأثير أكبر وأشد.

نحتاج إلى مثل هذا في نقل أفكار الآخرين البعيدين أو القريبين في الزمن، ومشاعرهم إلينا، نحن الذين يمكن أن نكون في ضفة أخرى، نحتاج إلى أن نتواصل بشراً، نقترب ونبتعد، نبحر أو نطير، أو نسير في أرض وعرة التضاريس مضللة الشاخصات... ربما!

ونتصادى آهاتٍ وزفراتٍ وصيحاتٍ من ظلم أو قهر أو عوز أو عجز أو خيبة...

نحتاج إلى أن نتبادل الأحلام والأماني والأخيلة والتصورات عن مغامرات أو مبادرات أو إرهاصات...

فالركب عزيز، والزمن عسير، والمسار ذو حوافّ لا تبدو آمنة.

لعل في التعرف إلى تجارب الآخرين ما يواسي، ولعل في تشاركية المشاعر والعواطف والخبرات ما يفيد في محاولة تخطي بعض المعابر العسيرة بأقل الخسائر.

ليت الجهود تصدق.

وليت تصفو النفوس والنوايا.

ولتفتح النوافذ أكثر!

j j j

العــالمية!

يستطيع الواحد منا أن يفكر، يحلم، ويأمــل... ويــستطيع أن يتصور حالاً أفضل، وواقعاً أكثر غنى، وصدى أكثر وضوحاً، وظــلاً أكثف...

ويمكن أن نلوم لعدم تحقق ذلك، نتهم، ونعتب، ونأسف...

لكن كل ذلك لا يفيد في شيء، إن لم يترافق مع سعي وجهــد ومبادرة وإقدام...

وإذا كان الكلام هذا يصحّ في أيّ أمر، فردي أم جمعــي، فإنــه يصبح بالغ الأهمية، إذا ما كان المشروع عظيمــاً، والهــدف بــالغ الشساعة والامتداد والسمو.

والوصول إلى العالمية تواصلاً وتفاهماً وتشاركاً وتفاعلاً... ليس هدفاً آنياً، ولا مرحلياً، ليس نزوة، أو هواية، أو غواية...

إنه رغبة وطموح وواجب ومصلحة ذاتية ووطنية إنسانية.

وليست العالمية في الذهاب إلى الآخر، والتحدث بلغته، مع أهمية

ذلك وفائدته، ولا في تقليده طقوساً وعادات وممارسات، وذوباناً في التفاصيل والمصطلحات والشعارات... مع ضرورة التعرف إلى ذلك.

إنه، قبل ذلك ومعه، الاكتناز الشخصي، والتمثل الثقافي، والاغتناء المعرفي، والانفتاح الواثق، والخطو المسؤول في الاتجاه الصحيح.

فليست المسألة من تكون، بل من تمثّل. وليست القضية ماذا تحمل من شهادات، وبأية لغة تتكلم، وإلى أين تسافر، وأي مؤتمر تحضر، وفي أية ندوة تحاضر، بل ماذا لديك، وماذا تقول، وما هي إمكانياتك؟

ليس المهم ماذا تطلب، وتأخذ، بل ماذا تقدم، وما تحتاج إليه!

عليك أن تقنع الآخرين بأهميتك، وقدراتك، لتحصل على ما تريد، أو على الأقل لتكون محترماً.

ويجب ألا يتوقّف الأمر على ما يقدّمون أو يمنحون، أو يروّجون له، أو يفرضون، بل يفترض أن تكون لدينا الإمكانيات الكفيلة بمعرفة ما لدى الآخرين، وما يهمنا منه، وما يفيد، وهذا لن يكون إذا ما كنّا سواحاً فحسب، أو طلاباً فقط، أو مدعوين في مناسبات، أو عابرين عجلين، أو مقيمين مستسلمين!

نتحدث في هذا الأمر كثيراً، وفي سواه، بلغتنا، وعبر منابرنا

الثقافية المختلفة، كلّ بمفرده، وفي أوقات متباعدة.. فما الفائدة في ذلك؟ من يسمع أو يهتمّ! الأمر قد لا يعدو أن يكون حديثاً مع النفس، فالزمن يمر، والحاجات تزداد، والمتطلبات.. رغم أن وسائل التواصل تتيسّر وتتسارع، لكن إيقاع الحركة الفاعلة بطيء، والنتائج الملموسة ما تزال أقلّ من المطلوب... بكثير!

الكلام سهل والتنظير يسير.

ونتكلّم عن همومنا ورغباتنا وطموحنا... فهل يكفي؟ وكيف نوصل ما نريد إلى الآخر، ومتى! وماذا نكتب بلغة الآخر، عن أية مواضيع، وأية قضايا؟ وهل يسمع الآخرون آراءنا، ويقرؤون أفكارنا؟ هل ننقل إليهم همومنا ومعاناتنا وواقعنا ورغباتنا وحاجاتنا! هل نتحدث عن ثقافتنا وتاريخنا؟ هل نظهر إمكانياتنا وإنجازاتنا؟ هل نقدّم إليهم ما يقنع بأننا نستحق الاهتمام والاحترام أكثر؟

هل يقدّم إعلامنا بلغاتهم ما يجدي، وما يكفي؟

يضاف إلى كل ذلك، ما يرون منا وما يسمعون ممن يمثلنا، ويتحدث باسمنا في مختلف المجالات. هل هو تعبير حقيقي عما نحن فيه وعليه، وعما نريد ونأمل وننتظر؟

لو كان الأمر كذلك، هل كان لدى الآخرين هذا الجهل أو التجاهل أو التغافل؟ وهل كان لديهم هذه المواقف تجاهنا؟

صحيح أن تعاملنا مع قضايانا، حتى فيما بيننا، ليس بالموضوعية المطلوبة، ولا بالجدية المرتجاة، لكن ذلك لا يمنع من التوجّه إلى الآخرين الذين لهم رأي ودور وفاعلية، بل إن ذلك ضروري وواجب. وإذا كانت المسؤولية في ذلك لا تقع على فرد محدد، أو جهة بعينها، بل هي مهمة جميع القادرين والمسؤولين بأية درجة وفي أيّ موقع أو جهة، فإن مسؤولية العاملين في الثقافة أفراداً ومؤسساتٍ مضاعفة، لأنهم الأقدر على التواصل، والأقدر على تمثل القضايا والهموم، والتعبير عن الرغبات والحاجات، وتحديد الغايات والأهداف، وتحمل المهام والتبعات لإيصال الصورة الأجدى، والحصول على النتيجة الأفضل.

j j j

تلك الفجوة !

في الحديث المباشر بين أي شخصين مختلفين لغةً، فجوةٌ زمنية حتمية للترجمة، يتأخر الحوار بسببها، وتتأخر ردود الأفعال أيضاً. ويبدو الأمر مثيراً حين يكون في القول طرفة؛ إذ يبدو الضحك بعد فوات الأوان!

يختلف الأمر أهمية وإثارة حين تكون المسألة المتداولة جدّية، وتتضاعف المسؤولية حين يكون المتحاوران من ثقافتين مختلفتين، وهي الحال الأكثر فعالية؛ حيث الفائدة المرجوة أكبر.

إذا كان هذا ما يحدث في الحوار المباشر، فكيف هي الحال حين يكون الحوار غير مباشر؟ وكم ستطول فترة انتظار الفعل، ناهيك عن وصول رد الفعل المناسب!

وما نتناوله هنا يتعلق بالقضايا الأدبية والثقافية. إذ يدور كلام كثير حول علاقتنا بما ينتجه الآخرون في شتى بقاع الأرض من ثقافات، ومدى تعرّفه وتفهّمه واستيعابه والحديث فيه والتأثّر به، واستطراداً: تطبيق بعض مفاهيمه أو مناهجه أو جميعها، إذا ما كان

الأمر ظاهرة أدبية أو نظرية نقدية مثلاً. ويقال الكثير في وصول النظرية بمختلف عناصرها وتجلياتها، وأخذنا بها وتمثّلنا إياها، بعد أن تكون قد أصبحت من الماضي في الوسط الذي أنتجها أو سادت فيه، بصرف النظر عن الحوار أو الجدل حول مدى صلاحيتها للتطبيق في أدبنا العربي قديمه وحدثه.

إن بقاء الموضوع في ساح الاحتمالات، يمكن أن يجعل الزمن الفاصل بين حصول مهتمٍّ على المادة واقتناعه بجدواها وترجمتها ونشرها، ووصولها إلى متلقٍّ مهتمٍّ أيضاً يمتد عقوداً! في الوقت الذي قد لا تستمر في منبتها المدة هذه. وإذا أضفنا إلى ذلك التساؤل حول جودة الترجمة، ومدى فهم المترجم للنظرية، وقدرته على تقديمها صالحة باللغة العربية، وتعذّر التحقّق من ذلك لندرة الاحتمالات الأخرى، تصبح الحال أكثر متاهة وضياعاً.

ولا يتوقف الأمر على ذلك، بل يتناول القضايا التي لم تصل إلينا، والأسماء التي لم نتعرف إلى أصحابها، في الوقت الذي تتكرر فيه أسماء وأفكار ونظريات وموضوعات...

صحيح أن الأمر تغيّر في الوقت الحاضر، بعد تزايد وسائل الاتصال وتنوّعها، وتسارع التواصل، لكن القلق يظل قائماً، وربما يأخذ اتجاهات جديدة تتعلق بالجدّية والموضوعية والمتابعة من قبل المهتمين أو المتخصصين.

ومن المفترض أن تجعل الظروف الجديدة الفجوة بين حصول

الظاهرة ووصولها إلى المتلقي العربي تضيق أكثر فأكثر. فهل الأمر يبدو كذلك؟!

الكلام يطول ويتكرر حول الترجمة وعشوائيتها، وعدم وجود مؤسسات متخصصة وبرامج عمل متكاملة، والجهود الفردية، والاهتمامات الشخصية، والمناسبات التي تكاد تلخص أحوال الترجمة إلى العربية على حد اطلاعنا. إضافة إلى أن هواية الاهتمام بالأعلام، وبما هو مشهور أو معروف، أو ثبتت أهميته، ما تزال مغرية وسائدة ومرغوبة، حتى في أدبنا العربي، حيث يُتغافَلُ عن أسماء وأعمال وإمكانيات حقيقية، ويُتجه إلى ما بات كثير التداول ومألوفاً. وليت الملتفت إلى ذلك يقدم جديداً أو مفيداً، بعيداً عن النقل والتكرار!

إن أهمية الدوريات المختلفة، ولاسيما الثقافية منها، والتي تعنى بالآداب العالمية، كبيرة، وهي أسرع الطرق للتواصل في هذا المجال.

ولا شك في أن الحاجة إلى الثقافة المعاصرة لا تكفيها دورية أو دوريات، لكنها تقدم ثراء لمتابع، وفائدة لمهتم، ومادة لدارس أو باحث...

وإن دور مثل هذه الدوريات لا يغني عن المهمة التي ينبغي أن تقوم بها مؤسسات متخصصة، ووسائل نشر وإعلام أكثر قرباً وتواصلاً وقدرة مادية وثقافية... وهذا يخفف الفجوة الزمنية، وبالتالي المعرفية بين المنتج الأجنبي والمتلقي العربي. فمن الواضح أن هذه الفجوة ليست مقتصرة على الزمن فحسب، مع أهمية الزمن وقيمته،

بل تتعداه لتأخذ أبعاداً ثقافية متنوعة، تغدو آثارها ــ في حال اتساع الفجوة وامتدادها مع قصور المشاركة الفاعلة ــ مدعاة للقلق والاكتئاب!

العالم واسع، ومستجداته وفيرة ومثيرة، ومن الضروري أن لا تأخذنا حوادثه الآنية المشتعلة، وقضاياه الملحة، بعيداً عن الاهتمام بالجوانب الثقافية التي تنمو ببطء، وتتراكم بطريقة مغايرة، وضرورة متابعتها ورصدها والحديث فيها ومناقشتها، وعدم انتظار مناسبة خاصة: جائزة ما، مشكلة أو فضيحة أو موت... حتى يهتم بهذا الأديب أو ذاك، ويكتب عن الظاهرة هذه أو تلك، ويتحدث عن كتاب أو سواه، من دون الحاجة إلى تأكيد أهمية الثقافة والترجمة التي تشغل ركناً أساسياً فيها، لفهم العالم وقضاياه والمساهمة الإيجابية فيها، وبالتالي خدمة قضايانا والسعي لإنجازها اقتناعاً وإقناعاً.

مع التأكيد أن إلحاحنا على عناصر الثقافة المعاصرة، لا يعني انبتاتاً عن الثقافة المزمنة ومبدعيها ونظرياتها ومظاهرها وإنجازاتها، بل يعني عدم الوقوف عندها فحسب، وعدم اقتصار المواد التي نترجمها وننشرها على ذلك فقط، مع ضرورة متابعة ترجمات وأبحاث تتضمن رؤى جديدة حيالها.

j j j

جسور ثقافية

ما يميز الثقافة، أن مساراها تتلاقى حتى لو توازت، ومواردها تتجمع أو تتراكم حتى لو تعرجت أو تأخرت، أو افترقت، ونتائجها تظهر ولو بعد حين طال أو قصر؛ سواء أكانت ظاهرةَ الجريان أو اللمعان أو التألق، أم كمنت وتواضعت وتكاثفت حتى يضيق بها الحيّز، فتنبثق؛ تترقرق أو تتدفق...

وما يميز الثقافة أنها لا تيئس ولا تموت، مهما أهملت، أو تم التغافل عنها، والتغاضي عن خصوبتها المبثوثة في الأحياء والأشياء والأركان والأزمان والأضواء والأفياء.

وما يميز الثقافة أيضاً أنها لا تنضب، مهما أشعّت، أو رطّبت الأجواء المتوترة، ومهما اضطرمت مواقدها، وارتفعت شرارات احتراقها، بل إن في ذلك فعالية مرتجاة باستمرار، وحيوية مطلوبة تشحذ عناصرها، وتخلّقاً يجدد خلاياها... وتلك ميزة أخرى هامة، فالكنوز موجودة، والزوادات عامرة، والطاقات لا تحدّ. وأيّ قصور أو شحّ أو تخلّف أو غياب... تعود أسبابه إلى أصحابها القاعدين القانعين الغافلين، والمنقّبين منهم المزهويّن بما استخرجوا بأدواتهم

البدائية، المعجبين بما قدّم لهم منها من استخرجها، وغير المبالين بما يمكن الوصول إليه، وهو أثمن وأغنى، أو على الأقل يمكن اختباره والوقوف على حقيقته وفائدته وجدواه بأدوات أكثر قدرة على التمييز، وعقول أكثر انفتاحاً وتقبلاً واستعداداً للتفهم والفهم والاقتناع... بعد أن تكون قد شحذت، وتعرفت إلى الكثير، وتبصرت في الجهات جميعاً، ولم تبق محكومة بما ورثت، وحبيسة ما لُقِّنت، مشدودة إلى ما تعرف وتستسيغ، منشغلة بما تيسّر، منكفئة إلى ما تتوهّم، متيّمة بما تهوى؛ ومن الحب ما قتل!

وما يميز الثقافة أيضاً أنه يمكن للراغب البدء في أي وقت، وفي أي مكان، بلا مناسبة أو دعوة أو استئذان. وليس معنى ذلك أن الأمر يعود إلى الرغبة فحسب؛ فليس العمل في الثقافة فرضَ كفاية، إن قام به بعض: فرد أو جماعة أو مؤسسة... سقط عن الآخرين، وليس للقيام بفعل ثقافي عبءُ فرضِ العين: الواجب الثقيل والهم المقلق والضغط الكتيم...

فالهاجس والرغبة، والحماسة والاندفاع الذاتي، والإحساس بالحاجة، والسعي الرضيّ، والتروع إلى الاغتناء، والأريحية في التعامل مع الأفكار والآراء والمفهومات والتجارب... كل ذلك وسواه عناصر تجعل العمل الثقافي متعة وقيمة وسعادة ومكافأة. ناهيك عن المسؤولية والمهمة والحضور المجدي في المجتمع والحياة.

وليس من الممكن للثقافة أن تُعلّب، أو تُؤسَر، أو يُستأثر بها، مهما كان الدافع لذلك، وكائناً من كان الساعي إليه، ومهما كانت تلك الثقافة قيّمة أو عريقة أو متماسكة أو ذات خصوصية، بل إن خصوصيتها المميزة، هي التي تخولها الخروج إلى الأحياز الأخرى، لتنال ما تستحق من ألق وتميّز، وتأخذ موقعاً مقدراً، ومكانة بقدر أهميتها واكتنازها، وتلعب دوراً في مسيرة الحياة التي لا تتوقف عند أصحابها أو عليهم؛ بدل أن تبقى رهينة عاطفة أو أنانية أو خوف عليها...

ولا شك في أن التواصل مع الآخر الذي يمكن أن يكون مغايراً أو متقدماً، أو مختلفاً بيئة وظروفاً وإمكانياتٍ ومساحاتِ حركة في الذهن أو الوسط... سيفتح الآفاق ويحفز وينشط، وسيؤدي التفاعل مع هذا الآخر ونتاجه إلى تغيير في الشروط والعناصر والمعايير، نستطيع الاستفادة منه بقدر ما نملك من رصيد حقيقي نقتنع به ونتمثله، ووسائل صالحة متجددة للتعامل مع الظروف والحالات المستجدة، واستعداد نفسي وفكري، وثقة بالنفس...

إن جانباً هاماً من مهمتنا أن نجعل هذا التواصل جزءاً من عملنا، وسبيلاً لإغناء تجربتنا، أي أن نكون فاعلين فيه، لا منفعلين بتياراته التي تهب، شئنا ذلك أو أبينا أو تغافلنا؛ فلم يعد الأمر خياراً في هذا الزمن الذي تشكل ثورة الاتصالات وسائلَ ورغباتٍ وحاجاتٍ إحدى علاماته الفارقة.

إن الفجوة ما تزال كبيرة، بين ما يجري من نـــشاطات ثقافيـــة عالمية، وما يصدر من كتب ودوريات، وما ينشر من إبداعات وأفكار ونظريات، وما يدور من حوارات.. وبين ما نعرفه منها، أو نتابعـــه في وقت مناسب. وما نزال في حاجة إلى المزيد من الجسور الـــتي تـــؤمن العبور في الاتجاهين، وليس في اتجاه وحيد. وأملنـــا يبقـــى ويـــزداد، ورغبتنا تتضاعف بخطوات جادة أخرى، يقوم بها أصحاب الاهتمـــام والمسؤولية والإمكانية. فما يميز الثقافة أيضاً وأيـــضاً أن أي مـــسعى جدي يفيد الكثيرين، وقد تعم فائدته على الجميع، وهو حق وواجب لا يغمط حقوق الآخرين ولا يضعف واجباتهم، وليس بديلاً عـــن أي مشروع آخر، ولا يلغي أي جهد، بل يشكل عامل دعم وتحفيز على المزيد من الجهود التي لم يفت أوانها. وكلما كـــان الإقـــدام أقـــرب، والخطو أسرع، والاستعداد أميز، كانت الفائدة أكبر، والصدى أعمق وأوسع، والأثر أكثر إقناعاً وجدوى.

j j j

الترجمة الأدبية

ليس جديداً القول إن للترجمة أهمية تتضاعف في هـذا العـصر الذي تقاربت فيه الأبعاد، وتشابكت العلاقات، وتداخلت المـصالح، وتفاقمت الأزمات، وتواشـجت المـشاعر، وتكاثفـت الزيـارات والمؤتمرات والملتقيات حول هذا الموضوع أو تلك القضية، في هـذا الركن من العالم أو ذاك، وفي مناسبات تتكرس وتستجد. وازدحمـت الفضاءات بالعبور والظهور، وباتت الأحداث، على اختلاف أنواعها وأصدائها، تصل إلى كل مكان بالصورة والصوت واللغـة المناسـبة، حتى غدت الترجمة موضع اهتمام شعوب الأرض كافـة، والعامـل المشترك في جميع الفعاليات والنشاطات والمنجزات الـتي لهـا آفـاق عالمية، أو تلك التي تطمح إلى أن تكون ذات حضور عالمي، مع تنوع الغايات، واختلاف الأهداف، وتفاوت المـسؤوليات والمـستويات، سواء أكان ذلك للتواصل مع الآخرين في شتى المجالات، وبمختلـف الوسائل والسبل والأشكال، والاستفادة من التجـارب والخـبرات، والمساهمة في المسيرة الإنسانية متفاوتة الألوان والفصول والمسافات.. أم أن وراء ذلك نزوعاً للهيمنة أو فرض الرؤى والمواقف والأفكار!

وعلى الرغم من الاهتمام المتباين بين دولة وأخرى، وهيئة وسواها، ما تزال حركة الترجمة وفعاليتها بطيئة، وفردية، مشتتة الجهود، قليلة المتابعة لما يُنجز في شتّى المجالات، وفي أماكن هامة من العالم؛ حيث يمكن أن تتفاوت درجات الإنجاز من موقع إلى آخر، كما تتمايز المواقع حسب اهتمامها بهذا الفرع العلمي أو الاقتصادي أو الثقافي.. أو ذاك، وتختلف أهمية ذلك بالنسبة إلينا أيضاً.

ويتجلّى عدم المواكبة الثقافية، حسب اهتمامنا على الأقل، في أن الكثير مما ينشر، أو يقدّم للنشر مترجماً، يتناول موضوعات قديمة ومألوفة، وربما مكرورة، ويتحدث عن شخصيات معروفة ومقروءة... وهذا ما يجعل الصدى باهتاً، حتى لو بذل المترجم جهوداً مهمة لتمييز ترجمته عمّا سبق.

ويعترف الكثيرون من المترجمين بهذي الحال، وبأنهم يتعاملون مع كتب ومراجع قديمة، مسوّغين ذلك بعدم إمكانية الوصول إلى منابع الكتب الحديثة في أماكن صدورها في الخارج، إضافة إلى غلاء أسعار هذه الكتب، وصعوبة وصولها إلينا في وقت مناسب.

ولا تكاد الحال تختلف بالنسبة إلى التعامل مع الدوريات الثقافية الأجنبية التي لا تصل إلا قليلاً. ويكرر المترجمون الحجج ذاتها، مع قيام القليلين منهم، للتعويض عن ذلك، بالاطلاع على بعض تلك

الدوريات، والحصول على نسخ من موضوعاتها لدى المراكز الثقافية الأجنبية في سورية، مع الإشارة إلى أن الدوريات بتواتر صدورها، وتسارع توزيعها، تُعطي للمطّلع الصورة الأكثر قرباً ووضوحاً للحركة الثقافية المعاصرة، وهي ضرورية أكثر للمترجم الذي يودّ معرفة ملامح اللوحة الثقافية العالمية، وبالتالي نقل أهمّ معالمها إلى قرّاء العربية، من حيث الآراء أو الأفكار الهامة الجديدة، أو المسارات الثقافية وسموها وحرارتها..

إن انتظار المعلومات والموضوعات سيطول حتى تصل، وفق نظرية الاحتمالات العصية، إلى أحد المترجمين النشيطين، فَيَهمُّ بترجمتها، ومن ثم يبحث عمّن ينشرها، سواء أكانت المادة مقالة أم كتاباً.. مع اختلاف الزمن اللازم لذلك، وتؤثر في هذا قيمة المادة، حسب أهمية الموضوع، أو شهرة الكاتب، وعلاقات المترجم. وهذا سيستغرق زمناً، يشغله الآخرون في التعامل مع المتوافر من موادّ، فتتكرر الأفكار والموضوعات وربما النصوص، وتزداد الهوّة الثقافية باطّراد بين ما يُعرف، وما صارت إليه الأمور. إذ يمكن أن ينشر كتاب في مكان بعيد، يفنّد نظرية أدبية نقدية ما، في الوقت الذي ما نزال فيه نجهد لفهم تلك النظرية، وتطبيقها في حياتنا الثقافية، ونجادل في أهميتها بحماسة واندفاع. وربما يكون الوضع في المجالات الأخرى أمرّ وأدهى!

إن التعامل مع هذه الإشكالية يتطلب الجدية والمسؤولية والصبر، من خلال تولي جهات ثقافية فاعلة وقادرة مهمةَ متابعة ما يُنشر في أهم المنتديات والمنافذ الثقافية العالمية، وتأمين الهامّ منها والمناسب، وتكليف مترجمين أكفياء بنقله إلى العربية، ومن ثم تقوم بإصداره. ويتم ذلك وفق خطة ثقافية شاملة، وسلاسل متكاملة من الكتب المتوزعة على الأجناس الأدبية، وحسب مضامين البحوث الفكرية والدراسات الأدبية، من دون أن نتغافل عن أهمية إعادة ترجمة بعض الكتب ذات القيمة المميزة في تاريخ الأدب العالمي والفكر الإنساني، وإصدارها باختيار دقيق وموضوعي...

ومن الجليّ أن مثل هذا المشروع يحتاج إلى رؤيا ورغبة وإرادة وجهد ووقت ومال وكوادر... وحتى يحدث هذا، لابدّ من السعي الحثيث للتواصل مع أبنائنا وإخوتنا وأصدقائنا ومعارفنا الذين يعيشون في الخارج، وفي مواقع ذات حضور ثقافي عالمي، والاستفادة من تواجدهم هناك للعمل أو التعلّم أو التعليم، لتأمين الاطلاع على الحيثيات الثقافية، ولاسيما أخبار النشر والإصدارات والمؤتمرات... والحصول عن طريقهم على أهم الكتب وترجمتها، إضافة إلى توثيق الصلات مع المراكز الثقافية العربية في الخارج، والأجنبية لدينا للغاية ذاتها.

كما يفترض الحصول على أهم الدوريات الثقافية العالمية،

للاطلاع عبرها على مسارات التيارات الثقافية والأدبية منـــها علـــى وجه الخصوص، وترجمة المواد ذات القيمة والفائدة، التي تعطي ملامح عن المشهد الثقافي العالمي المعاصر، وأهم الأفكار والمبادرات والوقائع والمتابعات فيه، تمهيداً لاستحضار الكتب والمراجع الحديثة الأخـــرى، والقيام بترجمتها وتقديمها للقراء.

وإذا كان لكل نوع من الترجمة خصائصه ومشكلاته التي تبـــدأ باللغة، ولا تنتهي بالمصطلحات والمفاهيم الخاصة بالموضوعات المتناولة وفروعها: اقتصادية أو علمية أو سياسية أو رياضية.. فـــإن للترجمـــة الأدبية ما يميزها عن الترجمات الأخرى، لعلاقتـــها المباشـــرة باللغـــة المترجَم عنها، والأخرى المترجَم إليها: مفردات وقواعد وصـــياغات ومعاني وتأويلات... إضافة إلى الرؤى والأفكار والخيالات والأمثال، وسواها من عناصر الثقافة التي تتمثل في اللغة، أو تمثلها تلك اللغة أو هذه، وقد تختلف من زمن إلى آخر، حتى في اللغة ذاتها، اختلافـــات بيّنة، فكيف ستكون الحال حين تترجَم؟ وكم ستتفاقم المسألة، إذا ما تمت الترجمة عبر لغة وسيطة؟

فالترجمة الأدبية ليست ترفاً، أو خياراً، ولا نشاطاً ذاتياً أو عملاً فردياً مرهوناً بالهواية، والوقت المتاح، والنافـــذة الممكنـــة للنـــشر، والمصادفة في الحصول على المادة... إنها قدر لا بد من التخـــويض في فضاءاته، والسعي لأن يكون أكثر فائدة وجدوى. ولا بد من أن تقوم

به مؤسسات قادرة تعتمد في عملها على بـــرامج وخطـــط لترجمـــة الأجناس الأدبية المتنوعة، وعرض النظريات والرؤى النقدية الحديثـــة، ورصد مختلف المستجدات في ميادين الثقافة العالميـــة، والوصـــول إلى آداب غير معروفة لدينا، أو غير متوفرة للقارئ العربي، منقولة عـــن لغاتها الأصلية، لا عبر لغات وسيطة وظروف مختلفـــة، مـــن دون أن نصرف الجهد في تكرار النصوص الإبداعية والبحثية، واجترار الأسماء نفسها، والنظريات عينها، والمعلومات ذاتها... ولا نقلل في ذلك مـــن أهمية الأعلام، الذين كان لهم حضورهم الثقافي والإبداعي عالمياً، وما يزال، والأفكار التي أثبتت فعاليتها عبر الزمن، وضرورة التذكير بها، وإن كان الأجدى أن يتم تناولها من منظور جديد أو زوايا مغـــايرة. وليس من المنطقي أن ينصبّ جلّ اهتمامنا على أخطاء الترجمة في هذا الكتاب أو ذاك، كلمات أو مصطلحات وسوى ذلك، مـــع أهميـــة الإشارة إلى الأخطاء التي تبدو مـــؤثرة في تغـــيير المعـــنى أو تـــشويه المقصود. لكن المفيد أكثر أن تكون مبادرات للوصول إلى مواد حديثة ونتاجات قيّمة، يتم اختيارها بخبرة، ويُـــسعى إلى ترجمتـــها بجـــودة، وإصدارها بمهنية. ومن المهم إنجاز كل ذلك بإشراف رؤيا ثقافية ثـــرّة منفتحة متجددة حيوية، يمتلك أصحابها الـــصلاحيات والإمكانيـــات للتحرك والتصرف وفق مناح مدروسة. ويمكن حينئذ تكليف المؤهَّلين القادرين على الترجمة بالعمل ومكافأتهم بما يستحقون، وهم سيعملون

بحماسة وجدية، لأنهم على يقين من أن لهم الأجر المناسب، ولا تربكهم وسائل النشر، أو تقلقهم همومه.

ولا ننسى أن نهضة حقيقية في الترجمة تحتاج - أيضاً - إلى ظروف أخرى تتعلق بالبيئة التي تترجِم، أو تهتم بالمترجمين، تشجعهم، توجههم، وتحترمهم. كما يحتاج الأمر إلى تسويق حيوي يؤمن إيصال النتاج إلى المتلقين، أو على الأقل تأمين عرضه أمامهم، مع الخبرة في ذلك، وتأمين حملة إعلامية من أجله.

ولا نغفل عن أن الأمر لا ينبتّ عن قضية رؤيوية معرفية تتعلق بقبولنا الآخر، والتعرف إليه وتفهّمه كما هو، لا كما نريد أن يكون، واختيارنا محاور وفروعاً في ثقافات قد تختلف عنّا، وترك أمر تقبّلها أو رفضها للقارئ الواعي الذي تحتاج إليه المواد المترجمة، ويساهم في انتشارها وتعميم فوائدها؛ فليس مفيداً نقل ما يختص بالأفكار والعقائد التي تناسبنا، أو توافق ما لدينا فقط؛ فتنعدم المثاقفة، ويغدو الموضوع قليل الفائدة محدود الجدوى.

والفرق كبير بين اختيار وآخر. إذ إن لأية مبادرة في هذا المجال ثمنها وقتاً وجهداً في الرصد والمحاكمة واتخاذ القرار، ومن ثم القيام بالترجمة فالعرض والتسويق... وليس من المقبول، بل من الخسران أن تتم هذه السلسلة كما لو كان الأمر أداء واجب، ولاسيما إذا ما قام بالخطوات بعضها أو جميعها قليلو الخبرة، أو محدودو المسؤولية.

إن هذا الأمر بالغ الأهمية، في عصر باتت فيه العلاقة مع الآخر لا مناص منها، وهي تحدد معالم المراحل التالية للعالم؛ ويمثل التواصل الثقافي أسّ هذه العلاقة وجوهرها، بوصف الاطلاع على ثقافة الآخر، ولاسيما من قبل شريحة أوسع، العنصر الأهم لمعايشته والتفاعل معه وفق علاقات متوازنة وسليمة... لا تتوقف على المصلحة، رغم أهميتها، فحسب، ولا تعكس صورة الغالب والمغلوب، ولا تتكئ على أفكار قديمة، وآراء مسبقة، ومعلومات تمّ تجاوزها، وأقوال متداولة ومواقف إعلامية، بل تعتمد على الفهم والتفهّم للواقع الثقافي الحقيقي، والتعامل معه بوعي وثقة بالنفس، ورغبة بالحضور الفاعل والدور الإيجابي البارز في المسيرة العالمية.

j j j

هذه المرجعية!

تتسارع وتائر الأحداث في العالم، ويتزايد اهتمام الناس بها، ويكثر متابعوها... بعد أن صار متيسراً ذلك، لتوافر الاتصالات وتقاناتها العالية، تلك التي تتطور باطّراد، وتأثير ذلك على وسائل الإعلام المتنوّعة التي يزداد حضورها في المجالات المتعددة والمناسبات المختلفة.

ويترافق الكثير من الوقائع، ولاسيما في أثناء النقل المباشر، مع الترجمة الفورية، التي تتطلب كفاءة عالية في الفهم والصياغة والبداهة والطلاقة.. وقد لا تخلو من ارتجال وتجاوز، لكنها ــ على الأقل ــ تضع المتابع في جوّ الحدث وفحوى القول.

في المجال ذاته، وبعد الانتشار الواسع للشابكة (الانترنت)، وازدياد المشتركين فيها، فقد كثر استخدام بعض برامج الترجمات المباشرة للنصوص، والتي قد تعطي المتصفح بعضاً من حيثيات الموضوع، وتختلف درجة مقاربتها ومستويات أخطائها وصياغاتها حسب البرامج وتحديثها.

وقد ازدادت في الوقت نفسه عمليات الاستعانة بما يـرد عـبر (الشبكة العنكبوتية)، سواء أكان مترجماً، أو بعـد القيـام بترجمتـه، لتقديمه أخباراً، أو تعليقاتٍ، أو نصوصاً، أو مـصادرَ معلومـات، أو مراجع في المطبوعات الورقية على اختلافها وتعددها، بدرجات مختلفة من حيث جودة الترجمة، واستيعاب الموضوع، والدخول الجـدّي في ثنياته، والاستعراض الموضوعي لعناصره المفيدة.

ويبدو هذا الأمر بعيداً عن أية متابعة مسؤولة أو اهتمام من أية جهة ثقافية أو سواها. وهل يكفي في كثير من الأحيان أن تقرأ عبارة (عن الانترنت) في نهاية المادة المنشورة، من دون الإشارة إلى الموقـع المأخوذة منه، أو الكاتب، أو المناسبة، أو التاريخ؟

فأي منحىً محدد يستفاد منه، وأية مرجعية موثوقة يعتدّ بهـا في مثل هذا الإرجاع؟ ناهيك عن المـصداقية والتوثيقيـة والجـدوى، وإمكانية التثبت من النص الأصلي قبل التدقيق في موضوع الترجمـة وصلاحيتها. والسؤال: من سيقوم بهذه المهمـة، شخـصاً كـان أو مجموعة، جهة رسمية أو غير رسمية؟

ولاشك في أن هذا الأمر ذو أهمية وخطورة، ولاسيما إذا كانت المعلومات غير دقيقة، والمصطلحات غير واضـحة، وحـتى أسمـاء

الأشخاص أو الكائنات الأخرى أو الأشياء غير أكيدة، إضافة إلى ما يمكن أن يُدَسَّ من أفكار مضللة، وآراء شخصية ذات غايات غير نبيلة، ووقائع مغايرة... وقد تَرِد للأسف بكل أخطائها في الدوريات، وربما في الكتب!

ومع تقديرنا العالي لفسحة الحرية التي يقدمها هذا الحيّز الشاسع، وإمكانية التواصل التي يؤمنها رأياً ومعرفة واطلاعاً.. فإن استسهال الكتابة فيه، وسهولة الوصول إلى الكثير، وأريحية الحصول على الكثير، أدّت وتؤدّي إلى استسهال النقل منه إلى الحيّز الطباعي، مع ما يترافق ذلك من مثالب لدى الذين ليست لديهم جدّية التعامل مع الثقافة والإبداع هاجساً وقلقاً ومشروعاً...

ورغم ازدياد هذه الظاهرة، وقابلية تزايدها مع تكاثر المشتركين في الشبكة العالمية ومتابعيها... فإنها تبقى من دون أي اهتمام نقدي موضوعي - حسب ما أعلم -، ويتضاعف الموضوع خطورة، حين «يستفاد» مما هو موجود في الشبكة جزئياً أو كلياً من دون الإشارة حتى إلى «الانترنت»، ويتم تبنّيه نتاجاً بحثيّاً أو إبداعيّاً خاصّاً.

وإذا كان هذا الأمر يحدث حتى في الطباعة الورقية بهذه النسبة أو تلك، رغم أن إمكانية «اكتشاف» الحالة أكثر احتمالاً منه في

الشبكة العالمية، فما الذي يمنع أو يحدّ من مثل هــذه «الأفعــال» في الشابكة ذاتها؟ ومن الذي سيكتشف؟ ومن الذي سيحاسب؟ وكيف السبيل إلى ذلك، حتى إن كان الشك قائماً؟ وبالتالي يجوز التــساؤل، بل يصبح واجباً، من دون الإساءة إلى أحد: كيــف يمكــن اعتمــاد «الانترنت» مرجعية ثقافية مأمونة؟

j j j

باحثون !

من المألوف أن يعمد كتّاب الدراسات والبحوث والمقالات الفكرية والأدبية إلى ذكر مقولات وأشخاص في سياق موادهم، لتأكيد ما يذهبون إليه، أو إغنائه، أو لمقارنته بسواه من أقوال وأفكار...

ويُستشهَدُ في العادة بالأعلام الذين لهم أثر بارز في هذا الموضوع أو ذاك، تاريخياً، أو في الماضي القريب، أو الوقت الحاضر. كما توضع مقبوسات من أقوالهم أو كتاباتهم أو أفكارهم في متون النصوص. وهذا أمر مسوّغ ومفهوم ومفيد، وضروري أحياناً، وفقاً لمادة البحث، وموضوع الدراسة، والغاية من ذلك..

وتبقى الحال مقبولة، إذا ما تحدد الاستشهاد، وجاء في موقعه المناسب، وقدم سنداً للفكرة أو دليلاً على المصدر والقصد، أو تأكيداً على ما يقدمه الكاتب.

لكن الإكثار من الأسماء والمقبوسات، وتكرارها، يجعلان في الأمر مبالغة غير مستحبة، ويتركان في المادة وقعاً ثقيلاً، يؤثر سلباً على المتلقي، من حيث الإيحاء بالاستعراض، والتعالم، والادعاء...

وتزداد الحال سلبية، حين يكاد النص يقتصر على هذه الاستشهادات، ويغيب أو يكاد، صوت الكاتب أو رأيه، سوى بعض جمل الاستهلال والربط والإحالات والتعقيب الذي لا يغني! وقد تتعثر الصياغة هنا، وتختلف سياقاتها عن المقبوسات اختلافاً مؤثراً، أو يتحول المقال إلى عرض لمجموعة من الآراء والأفكار، من دون محاكمة أو مناقشة أو مساءلة...

ويمكن أن يكون الاقتباس مشوَّهاً، أو مجتزأً، أو مقحماً، أو منقولاً عن مصدر غير مصدره الأصلي، ولا سيما إذا كان صاحب القول أو الفكرة أو الرأي أجنبياً، مع «الحفاظ» على خطأ الترجمة أو الصياغة إن وجد.. كما يمكن أن تكون المادة مكرورة، والفكرة مستهلكة، ولا جديد في تناولها ولا في إثارتها.

ومن السلبيات أيضاً، تناول الكاتب ما يوافقه من آراء، وتجاهل الآراء الأخرى التي يمكن أن تكون أكثر صوابية أو موضوعية أو جِدّة، حتى إن كانت الأسماء التي يُتّكأُ على أقوالها أكثر شهرة وسطوة وحضوراً...

ومع كل ذلك، يسمّى صاحب المادة دارساً أو باحثاً أو ناقداً، ولاسيما إذا ما قام بجمع «بحوثه» في كتاب أو كتب...

ولا ينسى هذا الدارس أن يختتم نصه بسلسلة من المصادر والمراجع، التي تحتاج إلى كثير مما تعدّون من أيام وأشهر وربما سنوات، لقراءتها جميعاً، أو ترجمتها وتمثّلها للعودة إليها واختيار المناسب منها،

ويصبح التساؤل عن هذه المصادر وحقيقة استفادته منها مشروعاً!

وبهذا تكتمل الثبوتيات التي تؤمّن لصاحبها مكاناً متميزاً في شتّى المواقع الثقافية والمنافذ الإعلامية، وقد يتبوأ مسؤوليات في المؤسسات الثقافية بأسماء وألقاب، ويشكل هذا الأمر مساحة مهمة في واقعنا الثقافي، لكنه للأسف، يغيب عن متناول النقد والمساءلة الثقافية والأخلاقية، كالكثير من الحالات المَرضية التي تتفاقم، والإصابات التي تتكرر بالعدوى، أو نتيجة رغبة بالحضور «الثقافي» أو الإعلامي بأية وسيلة وبأقل جهد، بصرف النظر عن الإمكانية والقناعة والجدوى، ومن دون الخوف من متابعٍ أو مقوِّم، وبلا رادع ثقافي أو إنساني!

ولا بد من الإشارة إلى وجود دارسين جادّين، وباحثين حقيقيين، ونقّاد موضوعيين، تمنعهم كراماتهم من الظهور المجاني، وتحول قاماتهم دون التهافت على النوافذ الإعلامية، ولا تشجع قلة «أسماء الأعلام» في كتاباتهم، وضآلة الاستشهادات في بحوثهم على الترحيب بهم، ولا يكفي الرأي المعبّر عن ثقافة ووعي، والموقف الذي ينبع من أصالة وموضوعية وجدية، والصوت الذي يجهد صاحبه كي يكون له تردداته الخاصة، لقبولهم وإفساح المجال لنتاجهم، في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون لهم الحضور المتميز، والدور اللائق، والاحترام والتقدير...

j j j

شرف الموضوع!

بقدر ما تبدو الموضوعات التي يمكن أن يتناولها الأديب وفيرة، يجدر بأي أديب أن تكون لمادته ميزة عدم التكرار، أو فرادة اختيار زاوية المعالجة أو منحاها، أو الأسلوب الذي تُقدم عبره إلى المتلقي، الذي تعود إليه مسألة الاقتناع أو القبول أو الاستمتاع أو الرضا...

لكن كثيراً من الأدباء يعتمدون على "شرف الموضوع" سبيلاً إلى الإقدام على "الفعل" الأدبي، من دون اهتمام بما كُتب أو يكتب حوله، وبلا كبير مسؤولية، ولاسيما إذا ما كان التناول يتعلق بعرض أو دراسة أو ترجمة، أو حتى كتابة "إبداعية". إذ لا شك في أن هناك استسهالاً للأمر، باعتقاد أن مجرد كون المادة تدور حول موضوع متفق على أهميته الوطنية أو القومية أو الأخلاقية، أو مُرضٍ ولاءً أو انتماء أو إيماناً، أو أنها تتعلق بعَلَمٍ له رصيد مهم لدى القراء... فهي تحمل جواز عبورها إلى أيّ منبر إعلامي، وبتكرار هذا الأمر، يكرس "الفاعل" أديباً "مشهوراً" ومقبولاً، بل مطلوباً!

وهذه المسألة سائدة وخطيرة ومعقدة، وتحتاج إلى جهود كبيرة

لتوصيفها ومواجهتها. إذ إن الاتهامات ستنهال - ربما - على القصد من وراء هذه المواجهة، من دون اهتمام بالموقف الفني النقدي، الذي يفترض على أي مشتغل جدي مهموم بالأدب والإبداع، أن يتبناه.

وتزداد المسؤولية حين تكون المادة مترجمة، بعدّ أن المطلعين على الموضوع بلغته الأصلية يمكن أن يكونوا نادرين، إضافة إلى متابعي ما كتب أو ترجم حوله، وبالتالي يقدم الكثيرون على القيام بترجمة مادة بحجة أنها ميالة إلى قضايانا، أو قريبة من أفكارنا، أو منسجمة مع مشاعرنا، أو تتحدث عن شخصية معروفة، أو قضية تشير إلى تاريخنا أو واقعنا بشيء من الاستحسان، أو أنها تبدو راهنة أو جديدة على ما بين أيدينا من مطبوعات. ويتم هذا التناول أحياناً بسذاجة أو بدائية أو ضعف.

ولا تتوقف هذه المسألة على الأدب، بل تتعلق بمختلف الفنون، من دون اهتمام بالتمييز بين الموقف الذي يمكن أن يعبر عنه بأشكال أخرى، والأداء الفنّي الذي له شروطه وعناصره وأدواته.. وهي لاتبدأ من الأغنية "الوطنية"، ولا تنتهي عند قصيدة المديح أو الرثاء، أو أدب المناسبة بشكل عام، من دون أن يعني هذا بأي حال عدم مقاربة هذه الموضوعات، بل هو حافز إلى تجويد هذه المقاربة وتحصينها، وإعطائها ما تستحق من جهد وفنّ.

ولا بأس من تأكيد أنّ محاولة تعميم مثل هذا "النشاط" من "فنّ" ساذج أو مشوّه أو قاصر، تفسد الغاية "النبيلة" من ورائه، فيما إذا كانت كذلك، وتروّج أساليب معوّجة، يُخشى أن تصبح بتكاثفها وامتدادها و"قامات" متبنّيها مقوّماتٍ ومعايير لتصنيف المبدعين، وهنا الطامّة الكبرى!

وليست الترجمة بعيدة عن مثل هذا الاحتمال، ولاسيما إذا ما كان العمل يتعلق بما أو بمن له صدى طيب لدى قراء العربية، أو "سوق" لدى المتلقين!

إن شرف الموضوع لا يكفي، كما لا يكفي القصد الشريف لتقديم مادة أدبية مقنعة، ولابد من حامل مميزّ، وأدوات خبيرة، وجهد وهجس وغنى وتمثّل... إضافة إلى الموهبة الأصيلة. حينئذ يصحّ أن نقول عن مادة إنها مقنعة، وعن نشاط إنه مقدر، وعن عمل إن فيه إضافة، وعن فعل إنه إنجاز...

من دون أن نغفل عن أن المستويات تختلف، والدرجات تتعدد، والإمكانيات تتمايز، وتفترق النوايا... لدى "المرسلين" كما لدى المتلقين، ويبقى الحكم للبيئة والثقافة والزمن.

j j j

لعلّ الذكـــرى!

للنشر أهميته وفوائده التي لا تحصى، ولصداه غبطة، وإحـــساس بفوزٍ ما، أو إنجازٍ على أقل تقدير. هذا ما لا يُختلف عليه، وبالتـــالي فإن من الممكن فهم سعي الكتّاب إلى نشر مـــوادّهم في الـــدوريات المتنوعة موضوعات واختـــصاصات ومواعيـــد صـــدور يوميـــة أو أسبوعية... حتى الحولية.

ولكن الذي لا يبدو مقبولاً، أن تطغى رغبة ظهـــور الاســـم في مقدمة المادة أو نهايتها، على الاهتمام بالمادة ذاتها، والتأكد من جودتها وسلامتها اللغوية والطباعية، ومناسبتها لهذه الدورية أو تلك؛ ناهيـــك عن التفكير بجدّتها وتميّزها وانسجامها مع تخصص الدورية، أو المنـــهج العام للنشر فيها، أو - بالحد الأدنى - صلاحيتها للظهور والانتـــشار والقراءة...

وليست غاية هذا الكلام القول أنْ تُصنَّعَ المادة وفق "قـــوانين" الدورية، وأن تكون موافقتها لأمزجة المحررين أو ظروف التحريـــر،

الشرطَ الأساس لإرسالها إلى هذه الصحيفة أو تلك المجلة، ومن ثَمَّ قبولها ونشرها، إضافةً إلى هدف الحصول على المكافأة المقررة، والاعتماد على العلاقات الشخصية... وسوى ذلك من السلبيات التي تحول دون ازدياد نسبة ما يستحق النشر فعلاً في الدوريات المتعددة. ومن هذه السلبيات: إرسال نسخ عديدة لمادة واحدة إلى دوريات مختلفة، أو إرسال مادة منشورة سابقاً بأية وسيلة نشر، لإعادة نشرها، أو دفع مادة قديمة مؤلفة أو مترجمة للنشر من دون مراجعتها، والتأكد من صلاحيتها للنشر في هذا التوقيت...

إن الغاية من هذا الكلام، أن يقدّم الكاتب مادة مهمة مفيدة ومناسبة إلى الجهة التي تنتظر مثل هذه المادة، أو تجد - المادة - فيها مكاناً يليق بها، وتحظى بالمتابعة والسؤال عنها وعن صاحبها والحوار حولها، وربما العودة إليها في وقت لاحق.

وإذا كان هذا الأمر مطلوباً مراعاته في الدوريات المتنوعة، ولاسيما الثقافية منها، فإن ما هو مطلوب من نشر كتابٍ أكثر بكثير... ومن الغريب أن تستسهل القضية إلى درجة تدهش فيها لطباعة كتب، بمستوى فني أو فكري لا يُسِرّ، مع أخطاء في التوثيق أو الإرجاع أو الاستشهاد أو اللغة!

ويتضاعف الاستغراب إذا ما كان صاحب الكتاب ممن لهم حضور في الساح الأدبية أو الثقافية بشكل عام.

وقد يكون الكتاب مجموعة دراسات أو مشاركات، كـان لها مناسبات ومواقيت متعددة ومتنافرة، من دون أن يـشار إلى ذلـك، ومن دون مراجعة ترميمية أو تأهيلية، وبعنوانات فضفاضة أو مضللة.

أما إذا كانت مواد الكتاب مترجمة، فالملاحظات تزداد تباعداً أو مقاربة، أو تفاوتاً في الأهمية بين ما يتضمنه من نصوص، ولن يـسوّغ ذلك وضع "مختارات" على الغلاف، لأن الاختيار يفتـرض الجـودة والتميز والخصوصية..

والأمر الذي يكاد يغفله البعض ممن ينشرون، أنه بقدر ما يشكل ظهور المادة حضوراً إيجابياً للاسم الذي يرافقها، إذا ما قدمت جديداً، أو أبرزت رأياً مغايراً، أو أسهمت بإيجابية في الحراك الثقافي..

فإن ما يُنشر يمكن أن يكون شاهداً ضد صاحبه، إذا ما كـان دون المستوى المطلوب، وهو دليل إثبات يـصعب التـبرؤ منـه، أو التخلص من تبعاته، وينسحب هذا على كل ما ينـشره الكتّـاب في الدوريات أو الكتب. وإذا ما كان من الممكن أن تختلـف وجهـات النظر في المواد الإبداعية، على الرغم من الانطباع العام الذي يمكـن أن يقوّم، فإن الموضوعات البحثيـة تقتـضي الدقـة والموضـوعية والمصداقية والتوثيق... ويزداد الأمر إلحاحاً فيما يتعلق بالمواد المترجمة، لأن من يتقدم لتحمل هذه المسؤولية، ينبغي أن يكون متمكنـاً مـن

أدواته، ولا يعتمد على قلة متقني اللغات الأجنبية، وندرة المطلعين على المادة في لغتها الأصلية!

إنها أفكار ليست جديدة، ولكن الواقع يستوجب إعادة طرحها... لعل الذكرى تنفع!

j j j

رفقـــاً!

يلجأ بعض الكتبة في الشؤون الثقافية إلى تزويد مقالاتهم بعـــدد من الأسماء، التي يمكن أن يكون لها رصيد لدى القراء أو المتابعين، ظناً منهم أن في هذا سبيلاً للارتقاء بسوية ما يكتبون، أو توهّم حـــدوث ذلك على الأقل في دخيلة المتلقين، الذين يمكن أن يفعل ذكـــر عَلَـــمٍ إبداعي أو فلسفي أو فكري أو نقدي... فعله لدى بعضهم في إعـــلاء المقال الذي يتضمنه عن المناقشة، ودفعه بعيداً عن إمكانيـــة تناولـــه بالنقد أو الاستفهام أو المساءلة... لأن الباطل لا يمكن أن يأتيه من أية جهة! وبذلك يعبُر المقال إلى النشر، ويسوَّغ لصاحبه التكريس محرراً، أو باحثاً أو مفكراً أو ناقداً...

وتزداد الحال تصعيداً، إذا ما كانت الأسماء أجنبية، ففي هـــذا دليل على سعة الإطلاع، وطول الباع في الترجمة أو الدراسة المقارنة.

ويمكن أن تنسب لهذا الاسم أو ذاك أقوال وأفكار، جزء منـــها معروف أو متداول، والكثير الباقي كلام يصح ويخطـــئ، يمكـــن أن يقوله المنسوب إليه أو يُتبنّى من قائلين أخر، غـــير معـــروفين ربمـــا! ويساهم في هذا التشويش، عدم الإشارة إلى المراجع التي ذكرت فيها هذه الأقوال، أو عدم التطرق إلى المناسبة التي قيلت فيها، والمـــصادر

الأولى التي نشرته أو اعتمدته، ناهيك عن أخطاء الترجمة المتواترة، أو أغلاط النقل الارتجالي والاستشهاد غير المناسب...

وقد يتحول المقال، أو تنقلب "الدراسة"، إلى فيض من الأقوال والأسماء، ويغدو كلام صاحب المادة شزرات ناشزة، أو عبارات عائمة مألوفة الصياغة، أو ركيكة التعبير، مهمتها جَسر الفقرات والتقديم لها أو التعقيب عليها، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً! من دون أن يكون "للكاتب" رأي ناقد أو مؤيد، مناقش أو موازن، معارض أو محلل أو مسائل عن دراية ومعرفة...

هذا فضلاً عن سيل من المصطلحات التي يستطيع ضجيج صياغتها المفرنج أن يضلل القارئ، ويتكفل غموض استخدامها بإرهاق المتلقي، فيتوقف عن الاستقبال المتاح، ويعزف عن الاستيعاب المباح، من دون أن يدركه الصباح!

فرفقاً بتلك الأسماء، التي يفترض أن تظل محترمة بعيدة عن الاستسهال و"الاستثمار غير المجدي"، ورفقاً بمن تبقى من المهتمين بالثقافة، عشاق الكلمة، المؤمنين بها وعداً ومتعة وخلاصاً.

ورفقاً بما تبقى من واحات في هذا القتام، يا أصحاب الأقلام!

j j j

أصــداء!

من يعمل يخطئ، مقولة اعتدنا على تردادها، وهي تحمل أبعــاداً يمكن التكهن بها، والوقوف عندها، ولعل أقرب ما يثار بشأنها، أن من لا يعمل لا يخطئ، وهذا ليس توصيفاً عابراً، بل يعني أن من لا يعمل، لا يقارن بمن يعمل، وبالتالي هو خارج التقويم، خارج الاهتمام، خارج الحياة! وهذا بحد ذاته عقاب دنيوي شديد. لكن هذا الأمر يقودنا إلى تساؤل ملح: هل يجوز أن يتساوى من يعمل مع من لا يعمــل؟ وإذا كان الجواب البدهي عدم جواز ذلك، هل من الحــق أن يتــساويا في العقاب؟ ولماذا لا يُهتَمُّ بالذين يعملون، حتى إن كان ذلك عن طريــق ذكر الأخطاء التي يرتكبونها في أثناء قيامهم بأعمالهم؟ ناهيــك عــن امتداح من يستحق وما يستحق!

إن الخطأ حاصل حتماً، لأن ما من عمل كامل تماماً، ويختلــف هذا الخطأ بين مقصود وغير مقصود، وأعتقد أن الخطأ المقصود خارج المقولة التي ابتدأنا بها الكلام، لأنه فعل تخريبي يــستوجب المواجهــة والحساب من دون إبطاء. أما الخطأ غير المقصود فمجالاته واســعة،

وحالاته متعددة؛ فالإهمال غير المتعمد والاستسهال والغفلة والسهو... يمكن أن تصيب العامل في أي ميدان، كما يتعلق بعض الأخطاء بخصائص العمل وظروفه في الحالات العادية والطارئة.

وليس قصدنا هنا البحث في أنواع الأخطاء، وتحديد ما يمكن التسامح بشأنها، وتلك التي تتطلب العقاب، بصرف النظر عن تفاصيل ذلك. وليس المقصود الدعوة إلى تصيّد الأخطاء هنا أو هناك؛ بل الأهم من كل ذلك أن ينال العمل أياً كان تقويماً أو اهتماماً. وكلما كان ذلك التقويم موضوعياً، ناجماً عن خبرة ورغبة حقيقية بالنجاح، وسعي جاد للتطوير والتقدم وتحقيق الإنجاز، كان الأمر أفضل والنتيجة أجدى.

ويمكن أن يأتي التقويم ممن هم غير مكلفين به، أي أن المهتمين في أي مكان يمكن أن يدلوا بآرائهم في هذا الموضوع المنجز إذا ما وصل إليهم، واطلعوا عليه، ولاسيما إذا ما كان العمل غير مخصص لأناس محددين، كما هي الحال في مواضيع الثقافة عموماً والأدب خصوصاً، فهناك متلقون مختلفون ومتغيرون ومتباعدون، ولا بد أن يكون لكل منهم رأي ما تكوّن لديه من متابعته للعمل واهتمامه بمجالاته. ولا شك في أن من المحفزات الرئيسية لإبداء الرأي جودة المادة وأهميتها وجديتها، وقد يكون من المعتاد أكثر الاحتفاظ بالآراء الإيجابية، وعدم البوح بها، ويجاهِرْ بالكلام من لديه ملاحظات سلبية،

ويختلف مستوى التعليق وموضوعيته وعمقه وجدارته باختلاف المعلقين، وهذا طبيعي أيضاً. وقد يكون الأمر غير ذلك، فتكون الآراء قاسية، والانتقادات لاذعة، تتجاوز الأخطاء التي يمكن أن تكون واردة، إلى النيّات والافتراضات، وقد تصل إلى حدّ التجريح الشخصي، وتعمّم ذلك على أحوال صاحب العمل خارج مجال العمل، وقد تأتي على تاريخه وسيرته وخصاله. وهذا يحدث أيضاً، ويمكن ملاحظته ومتابعته بمرارة. لكن أن يمر العمل المنشور على الملأ من دون أي تعليق، أو نقد حتى لو كان جارحاً، فذلك مدعاة للعجب والأسى والإحباط، كما يحدث لكتب بحثية ونقدية، وكتب إبداعية في القصة والرواية والشعر والمسرح، وكتب مترجمة في مختلف الأجناس الأدبية، ودوريات ثقافية منوعة أو متخصصة. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن العمل الذي لم يحظَ بالاهتمام لا يستحق التعليق، فقد اعتدنا على ألا نقوم بعمل من دون تكليف أو أجر، واعتاد الكثيرون على أن يحتفظوا بآرائهم لأنفسهم، أو للمقربين منهم، حفاظاً على العلاقات والصداقات والمكتسبات، وخوفاً من المواجهات، وقد تحمل بعض الآراء رسائل تواصل أو تقارب، أو دعوات للتعامل بالمثل، فتبتعد في الإعجاب والتقريظ عن الموضوعية، وقد تختلف آراء الشخص نفسه حسب الظروف والمواقف إلى درجة التناقض، وفي هذا غصة وخيبة.

لكن المرارة ليست أقل حين يُتجاهل العمل، فلا يتحدث أحد به أو عنه، أو قد لا يتعدى الأمر بضع كلمات مجانية عابرة، لا تغني ولا تسمن حتى إن كانت مادحة أو معجبة.

إن من المفيد أن تطرح الآراء بما يكتب وينشر، ومن المرغوب والمجدي أن يتعرف أي منا إلى أصداء أعماله، سلبية كانت أم إيجابية، والأفضل أن تتضمن الحالين، لأن في أي عمل قدراً من الجودة لا ينبغي الإقلال من قيمته، ولا المبالغة في إعطائه أكثر مما يقتضي التشجيع والتحفيز، ولأن فيه قدراً آخر من الإخفاق لا بأس من الإشارة إليه، من دون تضخيمه وتثبيط العزائم بسببه. إن من المهم المبادرة إلى إبداء الرأي مكتوباً أو شفوياً، ومن الأفضل أن يصل ذلك إلى صاحب العمل، فيستطيع أن يكوّن صورة عن العمل الثقافي الذي أنجزه من مقارنة الآراء بعضها بالبعض الآخر، وتقاطعها وتراكمها، ويفكر في قيمة ما ينجز، وأهمية متابعته، وسبل تطويره، وتصويب الأخطاء، واستمرار الخطو في الطريق الأكثر معرفة وجدية وجدوى.

j j j

احترام الذات الثقافية

في كل مرة يجري الحديث فيها عـن قلـة الاهتمـام بالثقافـة والمثقفين، وتضج الشكوى، يلح سؤال لا يني يتردد في ذهني: إلى أي حد نحترم الثقافة نحن معشرَ المثقفين؟

وهو سؤال مُرٌ، لكنه أهون ألف مرة من تساؤل أمـرّ: إلى أي حد نستحق الاحترام؟

وهذا بالطبع، ليس تسويغاً لمن لا يريد أن يحتـرم الثقافـة، أو لا يعرف أن يقدرها حقّ قدرها من خارج الوسط الثقافي، إذا كـان هناك من خارج حقاً. ولكنه دعوة ملحة للوقوف على الأرض الصلبة التي ينبغي أن نكون عليها، في مواجهة الغزوات المستـشرية علـى الثقافة ورموزها ومعناها وجدواها، من أكثر من جهة، وفي أكثر مـن ميدان..

والسؤال الذي يفترض أن يسأله كل مثقف لنفسه: ما الـذي يقدمه في سبيل ذلك؟ وما هي المبادرات التي ابتدعها؟ بل مـا هـي المشاركات التي يساهم فيها، والخطوات التي يخطوها من أجل مصلحة

تتجاوز مصلحته الخاصة؟ وقد نصل إلى سؤال أكثر تحديـــداً، وربمـــا وخزاً: إلى أي مدى ينسجم قول هذا المثقف أو ذاك مـــع فعلـــه؟ أو بصياغة أخرى: هل ينسجم قوله مع الحقيقة؟ وهل الآراء التي يعلنـــها هنا وهناك نابعة من قناعة؟ أم أنها كلام حق يراد به أي شيء ســـوى الحق؟ وإذا ما أريد به الحق، فإن ذلك يكون بلا أدنى جهد للسعي من أجل الوقوف على حقيقته، أو ترسيخه وجعله واقعاً يُحتذى!

وحتى لا يأخذ هذا الكلام أبعاداً قصوى، تصعب لملمة أصدائها، وبالتالي يضيع المقصود في مهاوي النسيان أو القول المجاني، يمكـــن أن نأخذ جانباً يكون البحث - أو القول - فيه ذا فائدة أو جدوى.

تُرى هل يسأل القائلون في منابرهم الثقافية التي يشرفون عليها، أو يظهرون من خلالها، عن أقوالهم، وأفعالهم، وجدواها ومـــصداقيتها ومبتغاها؟

منذ أمد ليس بعيداً، أقيم مهرجان أدبي في أحد الأجناس الأدبية الهامة، وشارك فيه عدد كبير من المبدعين والنقاد، وقد درجت عـــادة لدى المعنيين بمثل هذه النشاطات، لا أعتقد أنها حسنة أو تنم عن روح أدبية، وهي أن لا يحضر المشاركون الجلسات التي لا يكون لهـــم دور فيها، حتى لو كانوا من المحافظة ذاتها، وحتى لو كانوا صحفيين! وليت الأمر ينتهي هنا، فحين يتحدث بعضهم عـــن النـــشاط وفـــصوله في وسائل الإعلام على امتداد بثّها، إنما يتحدث بكلام العـــارف بكـــل

شيء، ولا يتورع عن وصف كل المواد التي قدمت بأنها «متواضعة بكل أسف»، باستثناء مادته طبعاً، هذا ما فعله بالضبط أديب معروف وصحفي معروف، وله منبر معروف في صحيفة معروفة!

وللحق فإن المذكور لم يحضر /الجلستين/ اللتين سبقتا الجلسة التي كانت له فيها مشاركة، وقدمت فيهما نصوص عديدة، وحين جاء دوره آخر المتحدثين في تلك الجلسة، لم يكن في القاعة، بل كان يدخن خارجها، أي أنه لم يحضر النص الذي سبق نصه إلى نهايته على الأقل، كما أن المقابلة التي أجريت معه، كانت في الجلسة ذاتها، وقبل الجلسة الأخيرة التي قدمت فيها نصوص عديدة أخرى، فبأي حق أو منطق يطلق مثل ذلك الحكم على جميع النصوص التي قدمت في تلك المناسبة؟ وعبر محطة فضائية تبث إلى كل بقاع الدنيا؟ الأمر لا يتعلق برأي قد توافق صاحبه عليه أو تعارضه، بل في قضية إطلاق رأي في أمر لم تتم معاينته ولا متابعته؛ أليست الحال هذه مدعاة للأسف على أقل تقدير؟ وماذا سيكون موقف الذي يعرف مثل هذه المواقف تجاه هذا الأديب الصحفي، أو سواه؟ وكيف سينظر إلينا نحن المصنّفين في هذه الشريحة، الذين نشكو ظلم الآخرين وعدم احترامهم لنا؛ بل عدم منطقيتهم أو مقاربتهم واقعنا الحقيقي؟

أمرٌ آخر يصب في الاتجاه ذاته...

في برنامج أدبي نقدي فضائي شارك فيه نقاد معروفون كثيراً، ويعتد بأقوالهم وآرائهم وتقويماتهم النقدية على نطاق واسع، حدث أن

غاب بعض الذين كان من المقرر أن يقدموا دراساهم النقدية حـــول عمل أدبي ما، فما الذي حصل من أجل ألا يؤجل تسجيل الحلقة، أو الحلقات المكْلِفَة؟ ببساطة... لا شيء يدعو للقلق، إذ ينبري شـــخص آخر لتقديم دراسة أو مشاركة حول المادة الأدبية ذاها، وقد لا يكون مطلعاً على هذه المادة. أو أنه قرأها وقت صدورها ربما منذ عـــشرات السنين، نعم... هذا هيّن وطبيعي، إذ لا يتطلب الأمر سوى أن يطلب هذا المتحدث من أي من أصدقائه المشاركين في البرنامج أن يـــذكّره بأحداثها؛ نعم.. يقول له: ذكّرني!

بعد ذلك تنهمر الأحكام النقدية والآراء التقويمية بما يملأ مـــدة البرنامج ووقت المشاهد المسكين بما ليس له علاقة - ربما - بالحقيقة، أو بما ليس دقيقاً على أقل تقدير، أو أنه قول ينطبق علـــى أي عمـــل أدبي، أو لا يزعج أحداً! المهم أن المتحدث ربح أجراً، وإنما كـــان لا يستحقه، وربما يحارب مثل هذا الفعل في منابر أخرى، أو في كتاباتـــه «الإبداعية»! بل يكيل التهم للذين لا يتورعون عن أن يقبضوا بـــلا تعب، وبلا وازع من أخلاق أو ضمير! وحدها المصداقية هي الـــتي تشوّه، واحترام الذات الذي يجب أن يدفع الآخرين باتجـــاه الثقافـــة والمثقفين تكريماً وتقديراً، سيكون هو الضحية الكبرى.

j j j

N

ما بين الثقافي والسياسي ١٣
فساد ثقافي! ١٩
لا تموت ولا..! ٢٣
المسؤولية الثقافية ٣١
المسؤولية والمشاركة ٣٩
الحراك الثقافي ٤٣
حرمان ثقافي! ٤٩
هذا الصامت! ٥٣
يحدث في الثقافة أيضاً! ٥٧
ألا ليت الشباب... .... ٦٣
المبدعون ٦٧
القناعة والإبداع ٧١
حَرْحَرَة...................................... ٧٧
طباعة ونشر ٨١
تَقْدمات... .... ٨٧
ثقافَة الألقاب! ٩١
محررون ثقافيون! ٩٧
لقاءات ثقافية! ١٠١
أنا من معي؟ أنا مع من؟ ١٠٧
منبريات ١١١
محاضرات ولكن..! ١١٧

تعميم... المشهد الثقافي نموذجاً! ١٢١
حول الغموض والوضوح في الإبداع ١٢٧
الأداء اللغوي والإقناع ١٣١
الأدب والمناسبات ١٣٧
إحصاء! ١٤٣
نوافــذ ١٤٧
العـــالمية! ١٤٩
تلك الفجوة ! ١٥٣
جسور ثقافية ١٥٧
الترجمة الأدبية ١٦١
هذه المرجعية! ١٦٩
باحثون ! ١٧٣
شرف الموضوع! ١٧٦
لعلّ الذكــرى! ١٧٩
رفقـــاً! ١٨٣
أصــداء! ١٨٥
احترام الذات الثقافية ١٨٩

نشرت مواد هذا الكتاب في الصحف والمجلات..

]]]

غسان كامل ونوس

- مواليد٢/١/١٩٥٨- صافيتا
- إجازة في الهندسة المدنية من جامعة تشرين عام ١٩٨١م؛ وصاحب مكتب هندسي خاص منذ ١٩٩٢م.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- حاصل على جائزة محمود المسعدي في القصة القصيرة من مركز الوطن العربي للنشر والإعلام (رؤيا) في الاسكندرية – مصر عام ١٩٩٠.
- حاصل على جائزة إيبلا للشعر في إدلب بسورية عام ١٩٩٢.

الكتب الصادرة:

في القصة:

١- هامش الحياة.. هامش الموت	اتحاد الكتاب العرب	دمشق	١٩٩١
٢- الاحتراق	مطبعة الشام	دمشق	١٩٩٢
٣- ظلال النشوة الهاربة	وزارة الثقافة	دمشق	١٩٩٤
٤- دُوار الصدى	دار الحوار	اللاذقية	١٩٩٧
٥- أحمر .. أبيض	اتحاد الكتاب العرب	دمشق	١٩٩٨
٦- العائد	مطبعة إياس	طرطوس	٢٠٠٠
٧- مفازات	اتحاد الكتاب العرب	دمشق	٢٠٠٣
٨- خطايا	وزارة الثقافة	دمشق	٢٠٠٣
٩- في الزمن الراجع	عروة للطباعة	طرطوس	٢٠٠٧
١٠- في الضفة الأخرى	شرق وغرب	دمشق	٢٠١٠

في الرواية:

١- المدار	وزارة الثقافة	دمشق	١٩٩٤
٢- تقاسيم الحضور والغياب	دار الحارث	دمشق	٢٠٠٢
٣- أوقات برية	دار إنانا	دمشق	٢٠٠٦

في الشعر:

١- تضاريس على أفق شاحب	مطبعة إياس	طرطوس	١٩٩٦
٢- موال الأرق	اتحاد الكتاب العرب	دمشق	٢٠٠٧

كتابات:

١- حـــالات	شرق وغرب	دمشق	٢٠١٠
٢- موضوعات ومواقف	دار إنانا	دمشق	٢٠١٠

للمراسلة:

بريد رأس الخشوفة – صافيتا – طرطوس - سورية

أو

طرطوس – فرع اتحاد الكتاب العرب – ص.ب /٣٣٩/

أو دمشق- اتوستراد المزة- اتحاد الكتاب العرب- ص ب / ٣٢٣٠/

بريد إلكتروني: gassan.k.w@mail.sy

هاتف: ٦١١٧٢٤٦ - دمشق

٨٠٥١٥٨ - منزل صافيتا

٠٩٣٣٨٠٢٦٩٣ - خليوي

— — —